الحوار بين الأديان

د. وليم سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الحوار بين الأديان

تأليف : د. وليم سليمان
تقديم : د. عبد العزيز كامل

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٦

الى أخى شفيق

الشــقيق
والصديق
والانسان
ابن مصر الحضارة
الذى انطلق بما تعلم منها يخدم الانسانية
خبيرا عالميا فى محو الأمية ،
كى يبصر الجاهلون فى كل مكان نور المعرفة ٠

تقـــديم
بقلم الدكتور عبد العزيـز كامل

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

قرأت أصول هذا الكتاب فى وقت استحوذ فيه الحوار الدينى على جانب غير قليل من وقتى · وأتيحت لى فرص لقاء مع اخوة مسلمين ومسيحيين : هنا فى القاهرة من مذاهب متعددة ، وفى قرطبة وفى تونس · وكنت أستعد لعمل أوسع ، وفى مجال أومن أنه أصبح من أهم ملامح النشاط الدينى المعاصر ·

والجزء الذى بين أيدينا من الحوار انما يمثل قطاعا منـــه · ويعنى – أكثر ما يعنى – بالخبرة المصرية ، التى قامت أكثر ماقامت – على المعايشة اليومية التى تزيدها خصبا وثراء وعطاء ، وتجعـل لها طابعها المتميز النابع نبعا صادقا من السماحة والاخاء ·

واذا كان الحوار الدينى المعاصر يستهدف توسيع أرض اللقاء الدينى ، وفتح آفاق جديدة من التعاون ، وفهم مجالات التباين – فان هذا الحقل – على الصعيد العالمى – لا تعمل فيه يد واحدة ، أو عقلية واحدة ، ولا ينبت زرعا واحدا متشابها · فكثير من الذين

دخلوه حملوا معهم بقلوب طيبة بذور التعاون ، وحمل البعض بذورا غريبة استهدفوا بها صالحهم الخاص ، واستطاعوا فى بعض أجزاء الحقل الكبير - أن يضعوا هذه البذور ، فضربت بجذورها فى الأرض ومدت سوقها زاحفة ومتسلقة وصاعدة حتى استطاعت أن تخنق بعض الأشجار الطيبة وأن تحتل مساحة من الحقل تفرض عليها وصايتها وسيطرتها ٠

وكما صنعت اليهودية العالمية والصهيونية فى عالم السياسة متعاونة مع الاستعمار فزرعت اسرائيل فى قلب عالمنا العربى والاسلامى ، واستطاعت أن تغرس خنجرها المسموم ما بين البحرين المتوسط والأحمر ، وأن تطرد أصحاب الأرض من حقهم وأرضهم ، وتحاول أن تستند فى ذلك مع بطش القوة الى نصوص دينية ، مع أن الدين فى جوهره حق لا يعرف الظلم ونور لا يعرف الظلام ٠٠٠ فانها تحاول فى عالم الفكر والحوار أن تخوض نفس المعركة ، فتزرع بها النبت الغريب عن سماحتها وأفقها الرحب ٠

واذا بجانب من الحوار بين اليهودية والمسيحية الأوربية يسير فى دروب تحاول بها اسرائيل مستعينة برجال دين منها ومن جانب من المسيحيين أن تتخذ من الحوار مطية جديدة تقربها من هدف جديد من أهدافها أو تنتزع بها ما استطاعت انتزاعه من حقوقنا ٠

ولا نود ونحن ندخل أرض الحوار أن ندخلها وعلى عيوننا حجاب ولو كان من نسيج النوايا الحسنة والقول الطيب ، وانما لابد من ربط بين النوايا والأقوال والأفعال ثم متابعة العمل على درب سليم وحمايته من قطاع طرق الفكر وان لبسوا مسوح الدين واستظلوا بأعلامه ٠

ولقد حاول المعسكران الكبيران اتخاذ الحوار الدينى مادة فى الصراع بينهما وسمعنا عن رغبات فى تجميع الذين يؤمنون

تجاه الذين لا يؤمنون - سمعنا هذا من رجال سياسة ورجال دين .. ومع تطور العلاقة بين المعسكرين خفت حدة هذا الحوار . وبدأ حديث جديد كانت له انعكاساته التى بدت فى مجالات الاقتصاد والسياسة كما بدت فى مجالات الدين .

ومن مراجعة أعمال الحوار الذى تم بين اليهودية والمسيحية الغربية نرى مدى سيطرة الفكر الصهيونى عليها والنفوذ الاسرائيلى حتى كأن الحوار يدور من أجل هدف واحد كبير هو صالح اسرائيل .

ولنكن أمناء مع أنفسنا حين نطرق هذا الباب ونسير فى هذا الدرب ، ولنسجل بكل موضوعية وتقدير التعاون الاسلامى المسيحى حين دخل هذا المجال العالمى ، وبرهن على اصالة الاخاء والدفاع عن الحقوق المشروعة فى أرضنا العربيةوشجب الظلم حيث كان ... وارتفع هذا الصوت فى أرضنا - فى القاهرة ولبنان وتونس ولاهور ، وفى الغرب - فى لوفان ببلجيكا وفى قرطبة بأسبانيا .

كما برهن من قبل على اصالته بالمعايشة على ضفاف النيل ووسط دوى المدافع وهدير الدبابات فى أرض المعركة .. انه حوار استطاع أن يعيش أربعة عشر قرنا لا يشعر بوطأتها ولا ثقلها ، يحملها كما يحمل الانسان ضغط الجو العادى يتحرك فيه بكل الفاعلية والقوة .

وهو حوار يجمع بين حب الحرية والعدالة الاجتماعية والتنمية الاقتصادية : أيد تعمل فى المصانع والحقول ، وعقول تبتكر فى المعامل وفى قاعات البحث ، وأخذ وعطاء دون عقد .. ورغبة صادقة فى اسعاد الانسان وتحريره من أغلال العبودية والاستعمار والتخلف، واقبال على العلم الحديث والتكنولوجيا مع ايمان عميق بالله تعالى .

أسوق هذا القول لأؤكد به الترابط بين مجالات التنمية ٠ وأن الدين اذا كان عطاء للحياة ودافعالها الى التقدم فهو دافع لهـــا فى مجالاتها جميعا ، وليس من العدل أن نسمع فى مجالات الحوار الدينى فى أوربا المسيحية هجوما على العلم الحديث والتكنولوجيا بدعـــوى حماية الفكر الانسانى من النزعات المادية وقصرا للعدالة على التوزيع لا على زيادة الانتاج ـ وكأن القوم هناك يريدون منا أن نظل منتجين للمواد الخام ، نرضى بالفقر وتوزيعه ، ولا نرتفع بمستوانا الاقتصادى عن طريق العلم الحديث ٠

وقد يسأل سائل :ما للدين والحوار الدينى فى ذلك ؟

واذا لم يكن الدين دافعا الى الايمان العميق والى الرقى بالحياة ، فكيف يؤكد حياته ؟ وهل نستطيع أن نحيا بلا ايمان ولا علم ؟

واذا كان الحوار يدور بين شرق وغرب ، بين منتج ومستهلك، بين زارع وصانع فى مصنع ، فلا بد أن يعرض لمقومات الحياة ـ لا عرض المتخصصين ولكن عرض التقويم والدفع الى الطريق الصـــاعد الى تحقيق آمال الشعوب ٠

من هذه الزوايا نستطيع أن نقترب من التجـــربة المصرية الخصبة العميقة الجذور ٠ وقد نتفق مع الصديق الدكتور وليم سليمان وقد لا نتفق ٠٠ والأمر ـ قبل كل شيء وبعده ـ أمر حوار مستمر ٠ والحوار لا يعرف الكلمة الأخيرة ، ولكن يعرف الاســتمرار والنمو والعطاء ٠ يعرف الجهد الصادق والعطاء العلمى الذى يتمثـــل فيما بذل الصديق الكاتب من جهد وما اســـــتهدف من غـــاية وما حشد لها من مادة علمية كان لها جامعا ومنسقا ومنها مستنتجا وعليها بانيا ٠٠ ثم هو يقدمها الى هذه الأمة العربية ليزيد من ثراء تجربتها ٠

فان يكن هذا الكتاب دافعا الى استمرار الحوار وصعوده الى أفق أعلى ، وتكاثر الأيدى حول منهله وتحويل الفكرة الى حياة ·· فقد أدى الكثير مما استهدف الكاتب ·· وهذا ما أرجوه ·

ويكفيه أن زرع فى حقل الحوار كلمة استهدف بها الخير والود والسلام · وما أسعد الزراع حين يرى كلمته تثمر الثمر الطيب فى الأرض الطيبة ·

عبد العزيز كامل

تمهيد

تطور نظرة الغرب إلى المذاهب المسيحية غير الغربية وإلى الأديان الأخرى

« الحوار » كلمة دخلت قاموس العلاقات بين الأديان والايديولوجيات حديثا . وهي تعني – أول كل شيء – ان كل طرف، صاحب دين أو عقيدة، يرى الطرف الآخر جديرا بالاحترام وبالمناقشة . ومع مواصلة عملية « الحوار » يتولد لدى كل طرف ان الآخر ليس محروما حرمانا كاملا من الحق ، وأن هذا ليس احتكارا خالصا لأى من الطرفين . ومع ظهور عوامل جديدة تتحدى الطرفين وتهددهما معا ، ومع تبين أهداف مشتركة ، يتطور الحوار ويزداد عمقا – من التعايش الى التعاون الى ما يجاوز ذلك من تنسيق أو وحدة فى مجال نظرى أو عملى ...

هذه العملية – على الصعيد النظرى والعالمى – حديثة نسبيا . كان المبدأ السارى من قبل هو « استبعاد » كل مطلق للآخر – مع ما يصحب ذلك من عزلة وعداء متبادل . وفى هذا المناخ وضعت ضمن مبادىء الأديان ، وفى العقائد وحتى داخل المجتمع الواحد مفاهيم

واتجاهات ونظم تكرس التفرقة بين المواطنين وترتبهم درجات على أساس العقيدة . وظهرت فى العلاقات بين الجماعات الداخلية أو على المستوى العالمى الحركات والمؤسسات التى رفعت الدين شعارا وستارا . وقامت الحروب الدينية قديما وحديثا . فضلا عن الهجمات الاعلامية المتبادلة التى تتطور الى قلائل اجتماعية وعاطفية تستنزف الجهد البشرى وتعمق العداوة بين بنى الانسان .

ولقد جهدت البشرية فى المجال السياسى ـ وما تزال ـ أن تقلل من حدة مبدأ « الاستبعاد » وأن تحصر آثاره . وقدم الفلاسفة أفكارهم وعرض رجال الفقه القانونى نظرياتهم . وتتابعت الجهود للوصول الى ابرام معاهدات فض المنازعات بالطرق السلمية دون الالتجاء الى الحروب .

وصدرت الوثائق الدولية التى تقرر مبدأ احترام سيادة كل دولة وحق تقرير المصير لكل شعب ، ثم الاعلان العالمى لحقوق الانسان الذى كفل « لكل انسان الحق فى حرية الفكر والضمير والدين .. » وكذا « لكل انسان الحق فى حرية الرأى والتعبير عنه ... »

وتضمنت دساتير دول العالم وقوانينها هذه المبادىء ونظمت تطبيقها .

وكان من الطبيعى فى ظل هذا التيار نحو العالمية ، أن تتقارب الشعوب وأن تتبادل خبراتها وأفكارها على أساس الاحترام المتبادل. وهذا مطمح طبيعى حيث ان وحدة الجنس البشرى مبدأ عميق الغور فى النفس الانسانية وفى وجدان الشعوب .

من هنا كان « الحوار » فى حقيقة الأمر معبرا عن رغبة بشرية ، وهدفا تسعى اليه الجماعة الانسانية . فلقد تأكد لدى

الجميع الاقتناع بان امكانية استبعاد كل طرف للآخر - بالجبر أو التهديد أو حتى بالاغراء - أصبحت غير واردة • ومع سرعة الاتصالات ، وتبادل المعلومات وكثرة العلاقات - ازداد التعارف بين البشر • ووجد الجميع ان ثمة ما يقرب بينهم ، ويربطهم بل ويجبرهم على التعايش والتعاون والاحترام المتبادل لتحقيق الخير المشترك على هذا الكوكب •

وثمة حقيقة واقعة هى أن مبادرات الحوار بين الاديان حتى الآن تنطلق دائما من الغرب ، لذلك فانه يصبح من اللازم أن نعرض للنظرة الأولى التى كانت لدى الغرب من نحو المذاهب المسيحية الأخرى ، والى الأديان غير المسيحية • ثم نحاول متابعة التطور فى الفكر الغربى فى هذا المجال •

تقوم النظرة الغربية الى المذاهب والاديان الأخرى على أسس ثلاثة :

أولا : الاستبعاد • ففى المجتمع الغربى كانت العلاقة بين المسيحية واليهودية تقوم على الاستبعاد المتبادل عقائديا واجتماعيا • وكاد الأمر أن يكون كذلك فيما بين البروتستانتية والكاثوليكية • ومن الطبيعى أن يكون الأمر على هذا النحو بالنسبة للمذاهب المسيحية غير الاوروبية ، ومع الاديان غير المسيحية • التفوق الاوروبى العالمى كان يعطى للاستبعاد هنا صورا ونشاطات تتجاوز الفكر الى العمل • وهنا نصل الى الأساس الثانى •

ثانيا : كان أحد أطراف العلاقة بين المسيحية الغربية عموما ، وبين المذاهب المسيحية الأخرى أو الاديان غير المسيحية يأتى دائما من الخارج · ولقد تمثل هذا الوفود فى صورته الغالبة والمؤثرةفى شكلى الاستعمار والارساليات (١)

ثالثا : وكنتيجة طبيعية للأساسين السابقين ، فان الاتصـــال الغربى بالعقائد غير الغربية كان هدفه فى المحل الاول هو تغيير عقيدة الآخر · ولهذا كان النقاش يدور فى اطار المجردات · ولم يكن ثمة واقع مشترك يقف على أرضه الوافدون والمحليون بهدف تغييره بفكر موحد بينهما وجهد يتشاركون فيه جميعا · على العكس من ذلك كان الارتباط بين حركتى الاستعمار والارساليات يقيـــم تعارضا فى المصالح يجعل الجدال العقائدى النظرى ، والهجوم على الكنائس والاديان المحلية هو البديل الوحيد المتاح ·

هنا نجد العامل غير الايديولوجى أى غير الدينى ذا تأثير بالغ الأهمية فى « الحوار » ·

هل تجاوز الغرب بعد ذلك مبدأ الاستبعاد ؟ وفى أى المجالات – وكيف ؟ ·

حدث هذا أولا فيما بين المذاهب البروتستانتية الغربية التى كانت تعمل فى حركة الارساليات ، ففى ميدان التبشير انتشرت

---

(١) John B. Carman, Continuing Tasks in Inter-Religious Dialogue, dans, Living Faiths and the Ecumenical Movement, W.C.C., Genève, 1971, p. 84.

الفوضى نتيجة الانقسامات العديدة بين الكنائس الغربية والتىسرت منها الى الكنائس الحديثة التى تأسست حيثما ذهب هـؤلاء الغربيون (١) • من أجل ذلك عقد فى عام ١٩١٠ أول مؤتمر عالمى - مسكونى - من أجل الارساليات فى ادنبرة باسكتلندا لتنسيق العمل بين الارساليات فى آسيا وافريقيا •

ومع مرور الزمن ، بدأت حاجـة مماثلة بين الكنـائس البروتستانتية الغربية نفسها ، وتم الاتفاق عام ١٩٣٧ على تكوين مجلس يضم فى الاساس هذه الكنائس •

وهنا أيضا يبرز العامل غير الدينى - متخذا شكلا يناسب العصر • فحين عقد أول مؤتمر لهذا المجلس عام ١٩٤٨ بهولنـدا كانت الحرب الباردة بين النظامين الرأسمالى والاشـتراكى فى سنواتها الاولى • وليس من الغريب اذن أن يكون حامل لواء المعركة فى الجانب الغربى فيما بعد - جون فوستر دالاس - على منصـة الرئاسة فى هذا المؤتمر (٢) ، بعد ان ساهم فى اعداد الدراسات التمهيدية له • ويظهر مما كتبه كيف تعبأ القوى الدينية فى معركة الحرب الباردة (٣) ولهذا لم تشترك أغلبية الكنائس الارثوذكسية

---

(١) وليم سليمان ، تيارات الفكر المسيحى فى الواقع المصرى ، الطليعة ، ديسمبر ١٩٦٦ ؛ ص ٩٧ • الكنيسة القبطية تواجه الاسـتعمار والصهيونية ، ص ٥٥ •

(٢) G.K.A. Bell, The Kingship of Christ, The Story of the World Council of Churches, Penguin Books 1954, p. 54.

(٣) The Church and International Disorder. An ecumenical Study prepared under the auspices of the W.C.C., SCM Press, 1948.

وكتب دالاس القسم الاول من الفصل الرابع عن « المسئولية المسيحية فى عالمنا المنقسم : المواطن المسيحى فى عالم متغير » ص ٧٣ - ١١٤ •

الشرقية فى هذا المؤتمر · وعقد قبل مؤتمر امستردام اجتماع فى موسكو من كنائس روسيا وصربيا ورومانيا وبلغاريا وبولندا والبانيا وتشيكوسلوفاكيا فى حضور بطريرك انطاكيا وبطريرك الروم الأرثوذكس بالاسكندرية · وأصدروا بيانا قالوا فيه « ان العنصر السياسى الامبريالى يسود مؤتمر امستردام · ولهذا رفضت هذه الكنائس أن ترسل مندوبين عنها اليه » (١) ·

ولقد تغير موقف هذه الكنائس فيما بعد · وانضمت الى المجلس ·

ولسنا هنا بصدد متابعة مراحل تاريخ الحركة المسكونيةقبل وبعد مجلس الكنائس ولكننا نقدم أمثلة على أثر العنصر غيرالدينى فى العلاقات بين الاديان والايديولوجيات ·

فمرة أخرى حين وضح من الحتمى للسلام العالمى التخلى عن سياسة حافة الهاوية ، وضرورة بدء التفاهم بين قوى الردع النووى بدأ « الحوار » بين المسيحية والماركسية — ويمضى الحوار بواسطة أجهزة مجلس الكنائس ·

هذا على صعيد العالم المسيحى الغربى ·

أما بالنسبة للكنائس التقليدية غير الغربية — التى تأسست فى العالم القديم ، وكذلك بالنسبة للأديان غير المسيحية — فقد كان مبدأ « الاستبعاد » يطبق عليها تطبيقا بسيطا وحاسما · ففى نظر الارساليات « الكنيسة القبطية سقطت بالفعل » (٢) وعندما عقد مؤتمر الارساليات الاول كان الرجل الأبيض واثقا من مهمته

---

(١) Meyendorff, L'Eglise Orthodoxe — Hier et Aujourd'hui, Paris 1960, p. 187.

(٢) انظر فى هذا الصدد ، وليم سليمان المرجع السابق

ومن رسالته · ولكن هزيمة روسيا - الدولة الأوربية - عام ١٩٠٥ ، من اليابان - الدولة الاسيوية ، ثم الحربين العالميتين - ذلك كله زعزع ايمان الغرب فى منهجه الدينى · وفى الحقيقة كان واضحا أمام الضمائر النقية ان فى هذا النشاط الدينى خارج الاراضى الغربية خيانة للرسالة المسيحية · وعبر عن ذلك فى نقاء كلاسيكى المبشر الانجليزى رولاند آلان فى دراسات صارت من التراث المسيحى (١) ·

ومع انتشار حركة التحرر الوطنى بدأ الغرب يعيد النظر فى موقفه من المذاهب والاديان غير الغربية · ولقد تضمن تقرير المؤتمر الثانى لمجلس الكنائس العالمى الغربى الذى عقد فى ايفانستون بالولايات المتحدة ، تعبيرا عن تغير الاتجاه الغربى يبرز العامل غير الدينى · يقول التقرير :

« ان نهضة الاديان غير المسيحية ، وانتشار الايديولوجيات الجديدة يفرض منهجا جديدا لعملنا التبشيرى · ففى عديد من البلاد خصوصا فى آسيا وافريقيا · تزداد هذه النهضات الدينية قوة بواسطة القومية ، وأحيانا ما تقدم نفسها كأساس فعال للاصلاحات الاجتماعية » (٢) ·

الشىء الجدير بالتأمل والتسجيل هنا هو ان الذين قدموا هذا التحدى الى داخل التجمع المسيحى الغربى هم قادة الكنائس الاسيوية · فمنذ الثلاثينات كان المسيحى الهندى P.D. Devandan يبرز دور الكنائس المحلية فى العلاقة مع الأديان الأخرى · وفى

(١) Roland Allen, Missionary Methods : St. Paul's or ours, London, 1912. The Spontaneous Expansion of the Church and the causes which hinder it, 1927.

(٢) C.F. Hallencreuz, Dialogue in Ecumenical History 1910-1971, dans, Living Faiths and the Ecumenical Movement, WCC, Geneva, 1971, pp. 60-61.

الخمسينات – في مؤتمر ايفانستون – كان أحد قادة الكنائس الاسيوية D.T. Niles هو الذى دعا كنائس الغرب الى أن تعيد النظر فى موقفها من الاديان الاخرى فى عصر ما بعد الاستعمار · (١) ·

ولكن لماذا تأتى هذه الدعوى من مسيحيى العالم غير الغربى؟

لأن الحياة فى مجتمعاتهم تقوم على التعددية ، وليس على مبدأ الاستبعاد المتبادل الذى ساد فى داخل الغرب وفى علاقته مع الغير · والعامل غير الدينى الذى يتدخل فى علاقة المسيحيين بغيرهم فى مجتمعات آسيا وافريقيا هو المشاركة فى مسئولية بناء الوطن ، داخليا ، والمساهمة فى توجيه التاريخ الانسانى عالميا · هذا العامل ينبع من داخل المجتمعات نفسها ، ويتجه بعد زوال الاستعمار الى تغيير الواقع الذى يعيش فيه جميع المواطنين على اختلاف أديانهم · وفى هذا يختلف تماما عن العامل المقابل الذى شاهدناه فى علاقة دول الاستعمار بمستعمراتها ·

وفى سيلان عقد بكاندى ، مارس ١٩٦٧ مؤتمر استشارى كان أعضاؤه من المسيحيين لدراسة الحوار بين المسيحيين وأصحاب العقائد الأخرى ·

ويعرف هذا المؤتمر الحوار بأنه « أسلوب أصيل للحياة فى الاوساط التعددية – وهو أسلوب يتجاوز مجرد التعايش » وهو يعنى « جهدا ايجابيا للوصول الى فهم أعمق للحق من خلال الوعى المتبادل بعقيدة الآخر وشهادته عنها » وهو «بحث مشترك سياسى ايديولوجى للتكامل فى العمل المشترك من أجل بناء الوطن » ·

---

(١) المرجع السابق ·

ويؤكد مؤتمر كاندى على فكرة « الانسانية المشتركة » التى تضم جميع المنتمين الى مختلف الاديان • كما يبرز المؤتمر ان الحوار بين الاديان يساعد الانسان العلمانى على تفادى العلمانيـــة المغلقة المتطرفة • (١)

هذه المفاهيم كانت تبرز على أرض آسيا ، فقد قام المسيحيون فى كنائس هذه القارة بدور قيادى فى توجيه كنائس الغرب لاعادة موقفها من الاوساط ذات الاديان المتعددة • (٢)

كيف جرى الحوار عملا بين الأديان ؟

ندرس فيما يلى نماذج للحوار ، بعضها كان متعدد الاطراف والبعض الآخر كان ثنائيا •

ونحن نقسم هذه النماذج الى ثلاث مجموعات طبقا للهدف الذى كانت تقصد اليه والمنهج الذى اتبعته •

أولا : الحوار الموجه يدور من أجل هدف موضوع مقدما لاتخاذ موقف معين من نحو قضية بذاتها ، وندرس فى هذا القسم أعمال مؤتمرين : أحدهما متعدد الأطراف « المؤتمر العالمى للدين والسلام » الذى عقد فى كيوتو باليابان أكتوبر ١٩٧٠ • والآخر ثنائى هـــو الحوار اليهودى المسيحى الذى يمضى منذ سنوات طويلة فى جميع بلاد الغرب •

---

(١) المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) نقصر الحديث هنا على الحوار الغربى فى اطار الجناح البروتستانتى منه ـ كنموذج . وللكنيسة الكاثوليكية تجربة قديمة وطويلة فى هـذا المجال تحتاج لأن تفرد لها دراسة خاصة خصوصا بعد اعلان مجمع الفاتيكان الثانى .

وسنجد فى هذه المجموعة ان العامل غير الدينى مؤثر وحاسم، وهو الذى يوجه الفكر الدينى ويسخره لتحقيق الهدف ٠

ثانيا : الحوار المجرد ينطلق أساسا من الفكر الدينى فى اطلاق غير موجه ٠ يحاول اطرافه الوصول معا الى المطلق حسبما يفهمه كل طرف والالتقاء معه بالفكر والتأمل ٠

وندرس فى هذا القسم أعمال مؤتمرين أيضا : أحدهما متعدد الأطراف : الحوار بين أصحاب الأديان الحية الذى دار فى عجلتون بلبنان مارس ١٩٧٠ ، والآخر ثنائي : الحوار المسيحى الاسلامى الذى دار فى برمانا لبنان يوليو ١٩٧٢ ٠

ثالثا : الحوار من خلال حياة مشتركة يمضى أصحاب الأديان فيها لبناء الواقع ، وتطويره ٠ ومواجهة التحديات التى تواجههم معا ٠ هنا يكون ثمة تناسق بين الاهداف المطلوب تحقيقها والفكر الدينى ٠

هذا النوع يمضى على الارض العربية منذ قرون طويلة ـ وبالذات على الأرض المصرية ٠ الاسلام والمسيحية يعيشان معا ٠ فى هذا الحوار نجد نفيا للأسس التى قامت عليها النظرة الغربية الى المذاهب والاديان الاخرى والتى أشرنا اليها فيما سبق : الاستبعاد والمجىء من الخارج والنقاش العقائدى المجرد ٠

الفصل الأول

الحوار الموجه

أولا - المتعدد الأطراف

ضمت المؤتمرات التى دار فيها هذا النوع من الحوار علاوة على الأديان السماوية الثلاثة - كلها أو بعضها - أديان الشـــرق الاقصى ، أو عددا منها .

وهنا سؤال أولى يفرض نفسه .

لماذا ازداد الاهتمام أخيرا بالحوار مع أديان الشرق الأقصى؟

تقول أوراق « المؤتمر العالمى للدين والسلام »

« World Conference on Religion and Peace »

انه فى أوائل الستينات حدثت عدة لقاءات بين اثنين منرجال الدين الامريكيين المسيحيين والحاخام اليهودى موريس ايزاندرات فى نيويورك - للتفكير فى عقد مؤتمر عالمى للدين والسلام (١) وفى

(١) تقول أوراق المؤتمر ان هذه اللقاءات كانت بعد أن رأى كل من هؤلاء الثلاثة حلما (!) طلب اليهم فيه العمل من أجل عقد هذا المؤتمر .

عام ١٩٦٥ عقدوا اجتماعا للجنة استشارية أمريكيـــة انتهت الى ضرورة تنظيم اجتماع أكبر . وهكذا التام مؤتمر الأديان القومى للسلام بواشنطن فى مارس ١٩٦٦ الذى حضره حوالى ٥٠٠ من رجال الدين والعلمانيين (١) . وكان من أحد قراراته دراسة إمكانية عقد مؤتمر عالمى للأديان والسلام عام ١٩٦٧ تحضره جميع أديان العالم . وجرت الاتصالات لهذا الغرض فى آسيا وافريقيا . وفى يناير ١٩٦٨ عقدت ندوة دينية عالمية عن السلام بنيودلهى حضرها حوالى خمسون يمثلون عشرة أديان (٢) . وفى نفس الشهر عقدت لجنة استشارية من أعضاء الندوة جتماعا فى كيوتو باليابان (٣)

ولقد أوصى كل من اجتماع نيودلهى وكيوتو بعقد مؤتمر عالمى أكبر عن الدين والسلام . وتألفت لجنة استشارية لهذا الغرض عقدت اجتماعا فى فبراير ١٩٦٩ بمدينة استنبول . وفى هـــذا الاجتماع وبناء على دعوة من الأعضاء اليابانيين باللجنة تقــرر عقــد المؤتمر العالمى للدين والسلام فى كيوتو باليابان فى خـــريف ١٩٧٠ .

هذه لمحة عن تاريخ مؤتمر كيوتو الذى عقد خلال المدة من ١٦ ــ ٢٢ أكتوبر ١٩٧٠ . الذى حضره ممثلون عن المسيحيـــة واليهودية والاسلام والبوذيةوالهندوكية والشينتوية والزراد شترية والسيخ (٤)

---

(١) نشرت أعماله فى Religion and Peace, ed. Homer A. Jack, Pub. Bobbs-Merrill.

(٢) نشرت أعماله فى World Religions and World Peace, ed. Homer Jack, Pub. Beacon Press.

(٣) نشرت أعمالها فى Proceeding of the Japanese-American Inter-Religious Consultation on Peace, January 22, 1968.

(٤) وتقول أوراق « مؤتمر القمة الروحى الثانى »
The Second Spiritual Summit Conference
الذى عقده « معبد التفاهم The Templet of Understanding
فى جنيف خلال المدة من ٣١ مارس ــ ٤ ابريل ١٩٧٠ ؛ ان « معبد التفاهم » =

وفى المدة من ١٦ الى ٢٥ مارس ١٩٧٠ عقد مجلس الكنائس العالمى فى عجلتون ، بيروت لبنان ، ندوة عن « الحوار بين المنتمين الى العقائد الحية » .

حضرها ممثلون عن الهندوكية والبوذية والاسلام والمسيحية .

= منظمة لا تهدف الى الربح أنشأتها فى ولاية نيويورك عام ١٩٦٠ المسز ديكرمان هو لليستر Mrs. Dickerman Hollister of Greenwitch

وهدفها الرئيسى هو تدعيم التفاهم بين الأديان العظمى . وتوجه برامجها لمن يتبعون أديان العالم العظمى ويبلغ عددهم ٢٥٠٠ مليون نسمة . ولقادة هذه الأديان وفقهائها . وهناك خطة بعيدة المدى لتشييد بناء رمزى فى الولايات المتحدة يعرف باسم (معبد التفاهم) وتشجيع بناء معابد للتفاهم مماثلة فى مختلف أنحاء العالم كمراكز تعليمية وأنشطة للاديان مشتركة على الصعيد العالمى . ومن بين هذه الانشطة عقد مؤتمرات يحضر فيها قادة الاديان العظمى معا لمناقشة ما يمكن أن يعملوه بشأن مشاكل العالم العظمى . ولقد عقد المؤتمر الاول فى هذه المجموعة فى جامعة جورجتاون بواشنطن فى شهر يناير ١٩٦٨ . وضم ممثلين للمسيحية واليهودية والاسلام والبوذية والكونفوشية والهندوكية .

وفى المدة من ٢٢ ـ ٢٦ اكتوبر ١٩٦٨ عقد مؤتمر القمة الروحى الأول فى مدينة كلكتا حيث دعا معبد التفاهم ٣٢ متحدثا باسم ١١ دينا من الشرق والغرب لبحث قيمة الدين فى القرن العشرين . وقرر المؤتمر انشاء منظمة دولية تضم أديان العالم لمواصلة العلاقات فيما بينهم مع عقد مؤتمر ثان لمناقشة الخطط المقترحة وتنفيذها ؛ نشرت أعماله فى

The World Religions Speak on « The Relevance of Rel'gion in the Modern World », ed. Finely P. Dunne Jr., Pub. Dr. W. Junk N.V. Publishers : The Hague, 1970.

وهكذا عقد المؤتمر الثانى وموضوعه « المتطلبات العملية للسلام العالمى » وبالذات لدراسة الخطوات العملية والواقعية التى يمكن للاديان عن طريق قادتها والمنتمين اليها أن تتخذها لتهدئة التوترات التى تهدد السلام من كل جانب . وحضر المؤتمر أعضاء من البوذية والمسيحية والكونفوشية والهندوكية والجانية واليهودية والاسلام والشنتوية والسيخ والزرادشتية (انظر تعليقا فلسفيا على هذا المؤتمر ، مراد وهبة ، معبد التفاهم ـ المخطط الامبريالى « مجلس الاديان العالمى » الطليعة ، القاهرة أغسطس ١٩٧٠ ص ٥٢ .

وكان محور الندوة يدور حول كيف ان الاخلاص الكامل والولاء الملتزم لدين المرء لا يقف عقبة فى طريق الحوار ٠

هذا الاهتمام بالحوار مع أديان الشرق الاقصى على وجـــه الخصوص ، ما سره ؟

نشرت مجلة تيم الامريكية فى عددها الصادر يوم ١١ ديسمبر ١٩٦٤ مقالا عن البوذية - الدين والسياسة بعنوان « بوذا عـــلى المتاريس » ٠

Buddhism, Religion and Politics. Buddha on the Barricades

تبدأ ببعض فقرات من أقوال بوذا ، تحض على السكينة ، والسلبية التامة وعدم الاهتمام بأى شىء أو تأثير فى أمر من الامور ٠ يقول :

« وكما انه فى أعمق أغوار المحيط - لا توجد موجة

« بل كل شىء ساكن ٠ هكذا فليبق الراهب (البوذى) ساكنا بلا حركة ٠

« ولا تأثير له فى أى مكان ٠ »

وتقول المجلة ان أقوال بوذا هذه ظل معمولا بها طيلة مايزيد على ٢٥٠٠ عام أما الآن ففى كل أنحاء آسيا تخلى اتباعه الرهبان عن تعاليمه ، ولم يعودوا بعد ساكنين بلا حركة ، بل انغمسوا فى السياسة تماما ٠ وأخذ الكثيرون منهم يصدرون البيانات السياسية وينظمون المظاهرات ويخططون لاسقاط الحكومات ٠ فمن المحيـــط الهندى الى بحر اليابان ، ومن اراودى الى خليج تونكين يحرك الرهبان الموجات السياسية التى هم أنفسهم لا يستطيعون أن يتنبأوا بآثارها النهائية ٠ الا أنها تؤثر تأثيرا كبيرا على الدور الذى ينهض به الغرب - والشيوعية - فى تشكيل مصير آسيا ٠

وفى فيتنام الجنوبية ، أكثر ن أى بلد آخر تقوم البوذية السياسية بأشد محاولاتها قوة وصراحة للاستيلاء على السلطة . ويمكن أن تعتبر البوذية اليوم تهديدا لهذا البلد مثل الفيتكونج - ان لم يكن أكثر . ولقد شهدت سايجون خـــلال أحد الاســـابيع المظاهرات التى أطلق فيها المؤمنون بحرمة الحياة القنابل اليدوية من المعهد البوذى الرئيسى ، وتكتل المراهقون الذين من المفروض أن تربيتهم كان أساسها الفكر المعتدل - تكتلوا مهاجمين رجال البوليس، ودفع تلاميذ بوذا الوديع العجائز والاطفال ليكونوا دروعا بشريـــة فى مقدمة المظاهرات .

وعلى الرغم من تنوع التأويلات التى أعطيت للبوذية على مر التاريخ ، تعبر عن ذلك كثرة الاوضاع التى يصور فيها بوذا - الا انه لم يحدث قط ان صنعت صورة لبوذا خلف المتاريس ، أو حاملا قنبلة يدوية .

وفى الأسبوع الأول من ديسمبر سنة١٩٦٤ التأم مؤتمر بوذى فى الهند أدان فيه البوذيون فى فيتنامالجنوبية ما يحدث فىبلادهم . وكانوا قبل ذلك بأيام قليلة قد أعلنوا بلسان المتحدث باسمهـــم ان حكومة فيتنام الجنوبية التى يرأسها تران فان هوونج يجب أن ترحل . ثم صدر بيان بوذى يصف رئيس الحكومة بأنه غبى خائن وعنيد ولا سياسة مرســـومة له .

وقبل ذلك بثمانية عشر شهرا كان راهب بوذى يدعى فيك كوانج دوك له من العمر ٧٣ سنة قد جلس فى وسط أحد شوارع سايجون وغمر نفسه بخمسة جالونات من البنزين وفى هدوء أشعل النار فى نفسه - كى يعبر بهذا الاسلوب الدرامى عن المعارضـــة البوذية لنظام الرئيس نجود بنه ديم . ولقد كان هذا المسلك ذو التأثير القوى ، بالاضافة الى الرد العنيف الذى اتخذه ديم - هـو

الذى دفع الولايات المتحدة لأن تسحب تأييدها لديم - معطية بذلك تصريحا بالاطاحة به وقتله ·

كان اتجاه الغرب التقليدي هو التعاطف مع البوذيين في فيتنام الجنوبية - أما الآن فالامر قد تغير فليس ثمة أى أثر لموقف دينى · فمن حول الصندوق الذى يضم قلب الراهب المحترق قد نمت حركة نضال عدواني منحرف عنيد يهدف الى السلطة ·

ووراء هذا كله يكمن التقليد الالفى لتلك العقيدة التى طالما حيرت الغرب ، والتى عاشت وأصبحت تواجه تحدى العصر الحديث : البوذية - وهى التى يؤمن بها حوالى ٣٠٠ مليون اسيوى ·

ولقد لعب التنظيم البوذى فى بلاد جنوب شرق اسيا عموما ادوارا سياسية بالغة الأهمية : فى لاوس وكمبوديا وتايلاند وفى اليابان أيضا ·

وثمة سؤال · من هى تلك الشخصيات الخفية التى تكمن وراء هذه الانتفاضات السياسية ؟

يبدو ان الراهب شيك تراى كوانج من جنوب فيتنام هو الشخصية التى تمثل السياسيين الصفر ، صاحب تأثير قوى وموهبة واضحة ، ويحمل فى نفسه ريبة قوية شديدة لكل ما هو غربى ، وهو يرفض مقابلة السفير الأمريكى مكسويل تايلور ·

ولد فى احدى بلاد الاقليم المسمى الآن فيتنام الشمالية ، وعاش فى هانوى حين كان عمره عشرين سنة · وقبض عليه الفرنسيون عام ١٩٤٨ بتهمة الشيوعية ثم أطلقوا سراحه بعد عشرة أيام · وقد اتهمته حكومة ديم أيضا انه يعمل لحساب الفيتكونج ولكن لم تستطع أن تجد دليلا على ذلك ·

والواقع ان ترى كوانج وغيره من الرهبان السياسيين لايمثلون كل البوذيين فى فيتنام الجنوبيه · ومن ناحيه اخرى فعلى الرغم من ان الرهبان يقولون ان ٨٥٪ من شعب فيتنام الجنوبية يدين بالبوذية الا ان الدين الفيتنامى فى حقيقة الامر هو خليط من التاوية والكونفوشية والمذهب الروحانى · ومهما يكن من أمر فان المذاهب البوذية قد تجمعت منذ يناير سنة ١٩٦٤ فى هيئة واحدة ذات جناحين : واحد للأمور الدينية ، والآخر للمسائل الزمنية · وتخطط هذه الهيئة بضم عائلات المناطق الزراعية فى خلايا منظمة ·

ولا تجد الولايات المتحدة أفضل من ان تساند حركة بوذية قوية ومستقلة · على ان البوذيين يحتاجون الى أكثر من المظاهرات والاعلام ليصبحوا كذلك · ان عقائدهم وتدريباتهم الدينية ونظرتهم للتاريخ — هذا كله لا يقدم الكثير من وضوح الرؤية للرهبان وسط العالم الذى القوا بأنفسهم فى مشاكله · انهم يجدون أنفسهم وسط معارك لم يخططوا لدخولها ، وفى مواجهة مشاكل ليس فى العقيدة كثير اهتمام بحلها · ان المجتمع الصناعى يقوم — ليس فقط على المادية ، بل وعلى الفردية · وهما فكرتان تعارضان تماما الفلسفة البوذية ·

ولكن هذه النظرة توضح ان الرهبان البوذيين ما زالوا يعيشون داخل أديرتهم ولم يفهموا بعد العالم الخارجى · وكما يقول نص بوذى قديم :

« حين تكون داخل حجرتك
« محصورا بين جدرانها
« فانك لا تدرى بما يحدث فى الخارج »

هذه هى الدراسة التى نشرتها مجلة تيم الامريكية · ومنها تبدو الرغبة الشديدة فى ضبط هذا التطور الذى طرأ على البوذية

وضرورة التحكم فى هذه الحركات الدينية التى تقوم بنشاط سياسى خطير ، وأهمية صياغة عقائدها بما يحدد مسارها فى المستقبل ٠

ليس ثمة غرابة اذن فى اننا نقرأ فى بيان مؤتمر كيوتو ١٩٧٠ اعترافا من الحاضرين بالمروق على الدين الذى يؤمنون به:

« وباعتبارنا رجالا ونساء يتمسكون بالدين ، فاننا نعترف، بتواضع وتوبة ، بأننا كثيرا جدا ما ارتكبنا الخيانة نحو مثلنا العليا الدينية والتزامنا بالسلام ٠ فليس الدين هو الذى تخلى عن هدف السلام بل المنتمون الى الدين ٠ هذه الخيانة للدين يمكن - ويجب - أن تصحح » ٠

والواقع ان مثل هذا التفكير من مصلحته ان تبقى هذه المجتمعات فى حالة تخلف مستمرة وأن يسد أمامها الطريق الى التقدم الحقيقى ٠

ولقد كان أحد المتحدثين الرئيسيين فى هذا المؤتمر د ٠ يوجين بليك السكرتير العام لمجلس الكنائس العالمى وقتئذ ، وجعل التنمية موضوع كلمته ٠

وأوضح السكرتير العام للمجلس بأن للتنمية أهدافا ثلاثة هى أولا العدالة الاجتماعية وثانيا الاكتفاء الذاتى وثالثا التنمية الاقتصادية ٠ ولكنه اختار الهدف الاول وقال ان العدالة ينبغى أن تكون محور عملية التنمية ٠ وهنا أيضا نجد التلاعب بالمبادىء اللاهوتية المسيحية - فقد قال انه من وجهة النظر المسيحية ثمة وضوح أخلاقى فيما يتعلق بضرورة حصول كل فرد على ضروريات الحياة والعمل والراحة ٠ ولكن لا يوجد مثل هذا الوضوح بالنسبة للمستوى الذى ينبغى أن تصل اليه جهود رفع مستوى المعيشة ٠

هذا الغموض لا يوجد بالنسبة لقضية العدالة (١) . ويصل السكرتير العام الى حد الدعوة الى ضرورة تغيير الاوضاع الاجتماعيه ويهيب بالجماعات الدينية أن تعبىء الفقراء والمظلومين من أجل هذا التغيير . ولكن لماذا لا يكون هذا مصحوبا بتحقيق الهدف الثانى وهو التنمية الاقتصادية ؟ لماذا تكون العدالة هى اقتسام الفقر ، لا صنع الرفاهية وتوزيعها ؟ .

كى يبرر بليك موقفه ينقد الأوضاع فى الدول المتقدمة بسبب ما ينتج من آثار مترتبة على التقدم التكنولوجى فيها . ويتساءل عما اذا كان التقدم الاقتصادى لا يعتبر بذلك كارثة على الانسان . ويقول انه لم يحدث فى تاريخ الانسان ان شاع اللبس والغموض حول آثار تراكم الثروة فى أيدى الانسان . ويقول انه يبدو ان الرجال المتدينين متفقون على أن الفقر الاختيارى والتقشف هى فضائل ايجابية (٢) (!)

النتيجة الواضحة لذلك ان تظل بلاد العالم الثالث مصدرا للمواد الخام فلا تستخدم العلم والتكنولوجيا الحديثتين لتحقيق التنمية . مكتفية بالفضيلة ، وعدالة توزيع التخلف (!)

---

(١) نفس المنهج الذى يطبقه تقرير بومان المقدم الى ندوة مجلس الكنائس بجنيف فى يناير ١٩٧٤ حين قال ان أحقية اليهود فى أرض فلسطين مسألة يسندها الكتاب المقدس أما حقوق الفلسطينيين فمسألة غير لاهوتية ـ مجرد قضية أخلاق .

(٢) كان مجلس الكنائس العالمى قد أصدر قرارات مماثلة بشأن خطورة التصنيع على الايمان الدينى . انظر الكتابين اللذين صدرا عن المجلس بشأن بلاد التغيير الاجتماعى السريع
Paul Abrecht, The Churches and Rapid Social Change, N.Y., 1961.
Egbert de Vries, Man in Rapid Social Change.
وقرارات المؤتمرات التى درسها هذا الكتابان .

ولقد جاءت قرارات لجنة التنمية في مؤتمر كيوتو متفقة مع هذا الخط - فلديها أيضا يعتبر تحقيق العدالة الاجتماعية هو الهدف الأول من التنمية وليس النمو الاقتصادى ٠

وحثت اللجنة الدول النامية الا تتقيد بالتقـــدم التكنولوجي الذى تسير عليه الدول الصناعية المتقدمة فى الغرب الرأسمالي الذى بدأ يعيد النظر فى الآثار الضـــارة التى ترتبت على التكنولوجيـــا التى استخدمها الغرب ٠ وقال التقرير ان المعونة العظمى التى يمكن للدول المتقدمة ان تقدمها للدول النامية هو تطوير قدرتها على أن تستخلص التكنولوجيا الخاصة بهاوالتى تتفق مع مواردها البشرية والطبيعية ٠

والواقع انه منذ بداية المؤتمر حذر سكرتيره العام هومير جاك من انغماس اعضائه فى اظهار الفقرات التى تتحدث عن السلام فى مختلف الكتب المقدسة ، أى ان الحوار لا يتم أساسا من خلال الأديان بل بقصد الوصول لهدف معين ٠ فقد تساءل الســـكرتير العام هل من الممكن أن يبذل هذا الوقت وهذا المال فى عقد المؤتمر لمجرد أن يسمع هنا ان كل دين يدعو الى السلام ٠ وقال انه بدلا من أن نبحث عن النصوص ونوردها ، علينا أن نواجه الســؤال الأهم : لماذا تجاهلت الأديان المنظمة نصوصها الخاصة ؟ لماذا كانت الأديان المنظمة عاجزة عن أن تمارس قيادة فعالة لتحقيق الســـلام العالمى ؟ وبالذات - لماذا كانت هذه الأديان فى العادة عاجزة عن التأثير فى سياسة الحكومات وزعمائها !

وواصل زفى فربلوفسكى - المفكر الاسرائيلى - نفس الدعوة ٠ قال انه فى أغلب الأحيان يقدم أصحاب كل دين ما يتضمنه دينهم من نصوص تحض على السلام وحقوق الانسان ٠ أما سجل الأديان فى موضوع السلام فهو معروف جيدا ، يكفى أن نستعرض تاريخ

الحروب « المقدسة » التى أثارتها الأديان أو شجعتها ، وتغاضت عن الوقوف فى مواجهتها ٠

ولدى فريلوفسكى تخطيط عملى واضح لجعل تأثير الأديـان واتباعها ناجعا ٠ ذلك انه فى الحياة العملية ومن أجل تحقيـــق السلام لا تكفى الوصايا والأفكار العامة التى تقدمها الأديان ٠٠ فالسلام الروحى ، سلام القلوب لا يؤثر فى المؤسسات الاجتماعية والسياسية التى تتحكم فى مصير العالم ٠

هذا من ناحية ـ ثم ان قضايا السلام وحقوق الانسان يهتم بها عديد من الافراد والجماعات ليس لها بالدين صلة انتماء أو اهتمام بل ان قدرا كبيرا من مناخ الوعى الاجتماعى الذى يحرك المتدينين اليوم تولد لديهم فى حقيقة الأمر من مصادر أخرى خارجـــة عن الدين ثم استوحاها المتدينون وادمجوها فى نظمهم الدينية ٠ كما ان هذه القضايا ليست موضوعات دينية خالصة ، ومن هنـــا ضرورة الاعتماد على رأى الخبراء ٠

والنتيجة ـ انه اذا أرادت الجماعات الدينية بهيئاتها التنظيمية وأجهزتها البيروقراطية ومواردها المالية وبواسطة الاعداد الضخمة من الجماهير المنتمية اليها ـ ان تؤثر فى مجـرى الأحداث ، وفى المشاكل العالمية الجارية ، واذ تقترب هذه الهيئات من مراكز القوة ـ فعليها أن تقبـل أنواع المســاومات والحلول الوسطى وقواعـــد اللعبة السياسية ٠

وواضح أن فربلوفسكى يتحـدث ووراءه التجربة الصهيونية كاملة ٠ فقد استطاعت المنظمة الصهيونية بكفاءة منقطعة النظير ان تطبق هذا الالتحام بين الدين والدبلوماسية واللعبة السياسية فى

مجموعها • وأن تنشط - مرحلة اثر أخرى - فى تناسق مع القوى السياسية والاقتصادية العالمية والمحلية •

هنا أيضا نجد الصهيونية تقدم الى ممثلى الأديان العالمية ، نموذجا لكيفية استخدام الدين وتنظيماته فى مجال المساومة وعدم الالتصاق بالمثل العليا للوصول الى الحلول الوسطى العملية - أى الحلول السياسية لا المواقف الدينية • وتجند من أجل ذلك امكانياتها البشرية والتنظيمية والمالية •

هذا كله يقدم فى مناخ يسوده القلق من تدخل الدين والمتدينين تدفعهم المثل العليا فى الكفاح الوطنى ضد الاستعمار والاستغلال على النحو الذى أوضحه مقال مجلة التيم السالف عرضه • أى ان الاهداف التى يطلب من المنظمات الدينية السعى لتحقيقها تحدد خارج المجال الدينى - يحددها خبراء السياسة والاقتصاد ثم يعبأ الدين بكل امكانياته لتحقيق هذه الأهداف •

• ولعل خير نموذج يوضح كيفية تطبيق هذا المنهج نجده فى تقرير لجنة حقوق الانسان بالمؤتمر • هنا نجد المبدأ الاخلاقى - ولكنه حين يطبق فى الواقع يخضع للمساومة والحلول الوسطى •

جاء فى تقرير هذه اللجنة ان الحرية الدينية تتضمن الحق فى التعبير عن مفاهيم الدين أو المعتقد فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية سواء على الصعيد الوطنى أو الدولى • وكان لابد اذن من التعرض للتفرقة العنصرية •

لقد أقرت اللجنة بوجود تفرقة عنصرية فى الولايات المتحدة وفى استراليا • ولكنها قالت انه فيما يتعلق بمعاداة السامية

وبمركز الفلسطينيين فى المناطق المحتلة فان المعلومات الكافية غير متوافرة من أجل اصدار قرار له فاعلية فى الوقت الحاضر ٠

فكيف يمكن أن تكون المعلومات غير كافية بعد ما يزيد عن عشرين عاما من نشوء مشكلة الفلسطينيين توالت فيها القرارات الصادرة من « الخبراء » الذين يدعو فربلوفسكى الى الالتجاء لهم - خبراء لجنة حقوق الانسان فى الامم المتحدة ، وجمعيتها العمومية وغير ذلك من اللجان والهيئات التى بحثت المشكلةعلى مدار السنين والتى أثبتت بالادلة القاطعة نوع المعاملة التى يلقاها سكان المناطق المحتلة على أيدى سلطات الاحتلال ٠٠٠ ولكن المسألةأصبحت لا موقفا دينيا يدافع عن العدل ، بل مساومة بين القوى السياسية تبرز جانبا وتغمض النظر عن جانب آخر ٠٠ (١)

---

(١) وردت الأنباء أخيرا عن عقد « المؤتمر العالمى الثانى للدين والسلام » فى لوفان ببلجيكا خلال المدة من ٢٨ أغسطس الى ٤ سبتمبر ١٩٧٤ ٠ حضره أربعمائة مندوب من ديانات العالم المختلفة ، المسيحية والاسلامية واليهودية والكنفوشية والبوذية والهندوكية ٠ ونشر أن المؤتمر أصدر بيانا عاما ووجه نداء الى شعوب العالم بضرورة تعاون ديانات العالم كلها فى كل مشكلات الانسان والجنس البشرى ٠ وان قراراته دارت حول نزع السلاح والتنمية الاقتصادية والحريات الأساسية وكذلك دور الدين فى انهاء حرب الهند الصينية وفى الصراع ضد العنصرية فى جنوب أفريقيا ، وذكر أن المؤتمر ناقش مشكلة الشرق الأوسط وشمال ايرلندا وقبرص وجنوب الفلبين (وطنى ٨ سبتمبر ١٩٧٤) ٠

والواقع أن هذا النشر المقتضب لا يمكنه أن يغنى عن الدراسة العميقة للأوراق التى قدمت للمؤتمر ومقرراته ٠ ان عدم امكانية الاطلاع على وثائق مثل هذا المؤتمر توجب انشاء مركز تحفظ فيه هذه الوثائق ؛ ويتاح لجميع الدارسين الاطلاع عليها بدلا من أن تكون فى حوزة من يحضر المؤتمر - يمنح من يشاء امكانية الاطلاع ، ويمنعها عمن يشاء ٠ على الرغم من أنه لا يحضر المؤتمر بشخصه بل باسم مصر ٠

ثانيا : الحوار الثنائي الموجه

يدور في الغرب ما يسمى بالحوار اليهودى المسيحى وذلك منذ أكثر من ربع قرن ٠

وصدرت من مختلف المؤتمرات الدينية وغير الدينية هناك قرارات ودراسات كلها تنطلق عن الشعور بالذنب من نحو اليهود ٠ وفي حقيقة الأمر فان دراسة هذه الوثائق لا بد أن تؤدى الى نتيجة مؤكدة هي ان هذه الاجتماعات ، والمناقشات لا يمكن أن تعتبر حوارا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة (١) ٠

(أ) نقطة البداية فى « الحوار » هى الاحترام المتبادل – الذى يقوم على الحرية والمساواة بين الطرفين ٠ فكل من الطرفين لا يملك ازاء الآخر الا الرأى يقدمه ، والنية الحسنة ٠ الواحد لا يلوى ذراع الآخر – لا بتهديد أو اغراء ، ولا يستغل فيه نقطة ضعف صحيحة أو مفتعلة ٠

كل هذه الشروط مفتقدة فى ما يسمى بالحوار اليهودى المسيحى ٠ لأن الطرف المسيحى فى الغرب يجرى ابتزازه باستمرار على أساس عقدة الاثم الناشئة عن معاداة السامية ٠

ان هذا الابتزاز يلغى منهج الحوار ، ويؤدى الى تشويه عقيدة الطرف المسيحى ، بل وتغييرها من أجل التكفير عن اثم معاداة السامية وكاجراء وقائى للحيلولة دون عودتها من جديد ٠

(ب) الحوار الصحيح ينطلق من نظرة انسانية شاملة ، يتعاون على أساسها طرفا الحوار على احترام كرامة الانسان وحقوقه

---

(١) يعد المؤلف للطبع دراسة لأهم الوثائق التى صدرت عن المؤتمرات الغربية فى هذا الموضوع ٠

فى أى مكان ، وعلى تأكيد وحدة الجنس البشرى ، ومقاومة الاغتصاب والعدوان والحرب • الحوار الحقيقى وراءه الانسانية العـامة التى تتحدث عنها الصفحات الأولى من سفر التكوين •

اما ما يطلق عليه فى الغرب اسم الحوار اليهودى المسيحى فانه من الجانب اليهودى يقوم على الخصـوصية اليهودية والزمنية الصهيونية فهدفه مطالبة الطرف المسيحى بتأييد الصهيونية فكرة وحـــركة ، وكذا دولة اسرائيل • أى مساندة العدوان واغتصاب أراضى الغير واهدار حقوقه •

الطرف اليهـودى هنا يعتبر الطـــرف المســيحى مجرد أداة يستخدمها لتأييد مواقفه المخالفة للحق والعدل والقانون •

(ج) الحوار الصحيح أخذ وعطاء • كما يريد طرف ان يفهمه الآخر ، فلا بد له ان يسلم بحق هذا الأخير فى أن يكون مفهوما كما هو دون مسخ أو تشويه • فى الحوار تنتفى الأنانية ، فلا يكون أخـذا متواصـــلا من جانب ، وعطاء ـ بالاختيار أو الجبر ـ من الجانب الآخر •

وتحـوى هـذه الوثائق اقرارا مسـتمرا وبلا تحفـظ بأحقية الجانب اليهودى فى كل ما يدعيه ودعوة متواصلة لأن يمنحه الجانب المسيحى كل ما يطالب به دون توجيه أى نقد الى الجانب اليهودى أو مطالبه له بموقف يتخده على آساس الحق أو العدل أو القانون • فالجانب اليهودى يطالب الآخر ، دون استعداد لأن يتقبل من الآخر طلبا مناظرا • يذكر الآخر دائما بآلام اليهودى دون رغبة فى الاحساس بآلام الغير • يطالب بأن يفهمه الآخرون كما يفهم نفسه ـ أى على أساس أحقيته فى مطالبه الزمنية الخاصة بالأرض والدولة • الخ • وتدعو وثائق الحوار الى التسليم بهذا الحـق ، ومن الطبيعى أن

تعتبر هذه الدعوة تبريرا لاستخدام القوة والعدوان للحصول على هذه المطالب التى تربط بالدين أى بالمطلق · دون أن تطالبه بأن يفهم الآخرين ويحترم عقائدهم وحقوقهم ·

ومن أجل هذا يعتبر الحوار اليهودى المسيحى ردة الى عهد ما قبل الحوار · وتقدم الصهيونية هنا أيضا نموذجا آخر نقيا للموقف القديم الذى كان يتخذه الغرب من المذاهب والأديان الأخرى· « فالاستبعاد » هنا ليس عقائديا وحسب ولكنه مادى · لا يقتصر على اطراح فكر الآخرين ولكن ينفى وجودهم المادى على الأرض المطالب بها ، ويصفيهم جسديا · ثم ان الصهيونية تقوم أساسا على زرع كيان غريب وافد من الخارج الى الأرض العربية · والحوار اليهودى المسيحى يهدف كما رأينا الى تغيير عقيدة المسيحيين وتشويهها ·

وبهذا يكون هذا الحوار قد استكمل الأسس الثلاثة التى رأينا ان نظرة الغرب الى الآخرين فى عصر ما قبل الحوار تقوم عليها ·

ومن هنا كان تحرك الجانب اليهودى لتطويق أية مبادرة من الجانب المسيحى للتحرر من هذا الابتزاز · ولقد هرع ممثلو الهيئات اليهودية الصهيونية واسرائيل لمواجهه مجلس الكنائس بعد أن تبدت مواقفه عام ١٩٦٩ وحين عقد حوارا متعدد الأطراف بين الأديان لم يكن اليهود فيه (عجلتون لبنان مارس ١٩٧٠) وتقول مجلة النيوزويك ان الحاخام الأمريكى مارك تانينباوم – ضاق بمواقف البروتستانت الليبراليين الأمريكيين أثناء حرب ١٩٦٧ ، لأنهم التزموا الصمت أو عارضوا أسرائيل · كما انه ضاق بموقف السود الأمريكيين لأنهم يأخذون على محمل الجد دعوة أنبياء العهد القديم الى العدالة · ويطالبون اليهود بأن تكون مواقفهم مطابقة لها فيكون

كل يهودى سليلا للأنبياء (١) ومن هنا ذهب مع زملائه الى مجلس الكنائس لتطويق الجهود التى تحاول أن تقيم الجواز على أسس أكثر انسانية وشمولا ٠

ولقد أثمرت هذه الاتصالات آثارها المطلوبة (!) فقد ظهر أثر هذه الجهود بوضوح فى اجتماع اللجنة المركزية بعد ذلك بأديس أبابا عام ١٩٧١ ٠ فقد أعلن السكرتير العام للمجلس - وقتئذ د ٠ يوجين كارسون بليك اصراره على أن يبقى الحوار اليهودى المسيحى هو الأساس ، وعلى أن يقيم هذا الحوار على أساس اذلال المسيحيين بسبب اثمهم من نحو اليهود ٠ ففى كلمته التى ألقاها فى اجتماع اللجنة المركزية بأديس أبابا عام ١٩٧١ ، ورغم ان موضوعها كان الحوار بصفة عامة بين أصحاب الأديان الحية ٠ فانه يركز على الحوار اليهودى المسيحى ، مؤكدا « التاريخ المجلل بالعار - تاريخ العلاقات اليهودية المسيحية على مدى القرون » ٠ ويقول انه لهذا السبب يجب أن يعطى المجلس اهتماما خاصا بهذا الحوار (٢) ٠

---

(١) ٩ نوفمبر ١٩٧٠ ص ٣٥

(٢)
E.P.S. 2 October 1969, p. 15. — The Church and the Jewish People, Newsletter, N4/1970, December 1970 — E.P.S. 19 February 1970, p. 8 — E.P.S. This Month, January 1971, pp. 5, 6.
E.P.S. 14 January 1971, p. 5. — This Month January 1971, p. 5.

وحين يكتب سكرتير لجنة الكنيسة والشعب اليهـودى جوهان سنوك بعد ذلك عن الحوار اليهودى المسيحى يقول ان أى مسيحى يكتب عن هذا الحوار « يجب عليه أن يبـدأ فورا بالاعتراف بالعـلاقات المشئومة بين اليهود والمسيحيين ٠ وعليه أن يقدم توبة عن ذلك » ٠
Johan Snock, Jewish-Christian Dialogue Today, dans, Living Faiths, op. cit., p. 121.

وهو يذكر أن كلمة بليك كانت نتيجة طبيعية لهذه اللقاءات بين ممثلى اليهـود الصهيونيين واسرائيل وقادة مجلس الكنائس عام ١٩٧٠ ٠ المرجع السابق ص١٢٣٠

لهذا فانه يكون أمـــرا طبيعيا ومنطقيا أن الدكتور ستانلى سامارتا - منطلقا من مفاهيمه القائمة على قيم المجتمع المتعدد الأديان - يعلق على هـــذه الاجتمـاعات التى دارت عام ١٩٧٠ فى مجلس الكنائس بين الوفد اليهودى الصهيونى الاسرائيلى من ناحية وممثلى مجلس الكنائس من ناحية أخــرى ، فيقول « ان قراءة المسيحيين واليهود معا بعض المزامير فى بداية كل يوم ·· هذه القراءة تحتاج الى أن تعمق دوما ومن جـديد بأدوات جديدة ورؤى أكثر اتســاعا للجنس البشرى فى الكتاب المقدس ، فتضم هذه الرؤى - ليس فقط ابراهيم واسحق ويعقوب ، بل آدم ونوحا أيضا » (١) ·

وفى حقيقة الأمر فان ما يسمى فى الغرب بالحوار اليهودى المسيحى بدأت طبيعته تتضح لدى جميع أطرافه · يطرح الأستاذ جون أور (٢) مدير مدرسة الدين فى جامعة جنوب كاليفورنيا الوضع الحالى لهذا الحوار من خلال السؤال التالى : لماذا عاملت الكنيسة (فى الغرب) مشكلة الشرق الأوسط معاملة مختلفة عن تلك التى واجهت بها النزاع الفيتنامى ؟ · ويقول فى دراسته هذه التى نشرت فى مايو عام ١٩٧٣ « حين نتأمل فى هذا السجل الذى لايستحق التقدير - سجل موقف اللاهوتيين المسيحيين (فى الغرب) من نحو

---

(١) S.J. Samartha, Dialogue as a Continuing Christian Concern, dans, Living Faiths and the Ecumenical Movement, WCC, Geneva, 1971, p. 147.

وهذا الكتاب أشرف على نشره د· سامارتا وضـمنه أغلب الـكلمات التى القيت بشـأن الحوار فى اجتماع أديس ابابا · ولـكنه لم يورد فيه كلمة السكرتير العام يوجين بليك ·

(٢) John B. Orr, Theological Perspectives on the Arab-Israeli Conflict, dans, The Middle East : Quest for an American Policy, ed. Willard Billy, State University of New York Press, Albany 1973, pp. 335, 341.

وقد نشر الكتاب قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ·

النزاع العربى الاسرائيلى ، والاطار الذى تكونت فيه تلك المواقف ـ يظهر واضحا ان الجماعة المسيحية (فى الغرب) ما زالت أمامها مهمه داخليه هامة عليها أن تنجزها · فقد لا يكون من الخطير عدم وجود اتفاق فى الرأى داخل هذه الجماعة · ولكن السيء هو التخبط والصمت اللذان يعبران عن الارهاب والتبلد والافتقار الى الوضوح· ان الانسان حين يتأمل المعالجة المسيحية (الغربية) لازمة الشرق الأوسط لا يستطيع تفادى الدهشة لما أصاب النقد الاجتماعى المسيحى (فى الغرب) · ففى مواجهة النزاع الفيتنامى ، كان النقاد مناضلين بعنف وواضحين تماما وفى العديد من المسائل القومية قدموا تعبيرا عن الضمير بالغ الفائدة · ولكن الموقف الباهت من نحو الشرق الأوسط لا يمكن التغاضى عنه » ·

ويحلل الأستاذ أور موقف الصحافة المعبرة عن الرأى السياسى المسيحى الأمريكى · ويذكر ان مواقف هذه الصحف تراوحت بين الاعتناق الصارخ للمطامح الصهيونية ، وبين القول بان الضمير المسيحى يحتاج الى اتخاذ موقف الرفض بالنسبة للسياسة التوسعية الاسرائيلية · مع الأخذ فى الاعتبار انه لم توجد قط دورية مسيحية شعبية امريكية ذات توزيع واسع أخذت على عاتقها تقديم الموقف العربى ـ بتعاطف وثبات ـ لرجال الدين والمثقفين العلمانيين الأمريكيين · وفى هذا المجال يفرق جون أور بين الصحافة المعبرة عن الكنائس المحلية الأمريكية ، وتلك الصحف التى تنطق باسم الحركة المسكونية داخل الولايات المتحدة · فيقول ان جريدة Christianity and Crisis مثلا التى تصدر فى نيويورك تحولت خلال السنوات القليلة الماضية من الانحياز للصهيونية الى موقف يمكن أن يوصف بأنه محايد ، برجماتى يواجه كل حالة على حدة · فى حين ان Journal of Ecumenical Studies تواصل اتخاذ موقف منحاز للصهيونية واضح وثابت ·

ويورد أور فى هذا الصدد ما قاله فى سبتمبر ١٩٦٧ جون

بنيت – أحد قادة الفكر المسيحي الامريكي – من ان القادة المسيحيين المرتبطين بالحركة المسكونية عادة ما يعتنقون وجهة نظر مناصرة للصهيونية ، وذلك بسبب انغماسهم العميق في الجهود الرامية الى تعزيز الحوار اليهودي المسيحي • في حين ان رجال الكنائس المحلية ecclesiastical bureaucracy عادة ما يتخذون موقفا محايدا أو مناصرا للعرب (١) •

وكانت حرب ١٩٦٧ هي المناسبة التي كشفت لطرفي الحوار الطريق المسدود الذي يسير فيه • يقول جون أور ان ما كان يحرك معظم الصحف المسيحية الأمريكية هو الاهتمام باستمرار وجود دولة اسرائيل • ولكن هذا الموقف لم يكن مقنعا للصهيونيين – الذين امتعضوا في مرارة من التردد المسيحي في مساندة اسرائيل أثناء تلك الأزمة •

جون بنيت – الذي كان من قبل مناصرا للصهيونية(٢) ، تحول مع أحداث ١٩٦٧ تحولا كاملا • فاذ استثارته السياسة التوسعية الاسرائيلية كتب :

« حتى لو كان الفهم الذاتي اليهودي يتطلب كهدف احتلال القدس كاملة ، فان هذا المنطق اللاهوتي لا يمكن أن يبرر اهدار متطلبات العدالة فيما بين اسرائيل وجيرانها • اننا لا يمكن أن نمضي في اعتبار ان اسرائيل ككيان حديث لها أساس كتابي ليكون مبررا للحصول على مزيد من الأرض • فما كان يصدق في قرن سابق بشأن علاقة اسرائيل بالقدس لا يمكن أن يكرس حق الغزو في القرن العشرين » (٣) •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ •

(٢) ظهر ذلك في مؤتمر نيودلهي ١٩٦١ حين كان يواجه المندوب المصري ؛ مؤيدا اصدار قرار ضد معاداة السامية في أقوى صورة
The New Delhi Report, London, 1962, p. 150.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٠ •

هـذا الذى كتبه بنيت ، يوضـح حقيقة الحـوار اليهودى المسيحى - كما أظهرت ذلك الخبرة على نطاق واسع منذ صيف عام ١٩٦٧ وفى الشهور الأخـيرة منه سواء لدى الجانب اليهـودى ، أو المسيحى ٠

ففى مقال بجريدة مناصرة للصهيونية Christian Century نشر فى يوليو ١٩٦٧ بعنوان « لماذا تحـرر اليهـود الامريكيون من الوهم ؟ » Why American Jews are disillusioned ? ٠ تقول الجريدة :

« على ضوء ما ظهر أخيرا من عدم مناصرة المسيحيين لاسرائيل - فان الحوار اليهودى المسيحى الذى كثيرا ما أسرف فى اطرائه قد اتضحت حقيقته - فاذا هو هش وسطحى ٠ لأنه اذا لم يكن الحوار ذا أثر الا فى أوقات الهدوء ، فانه يثبت انه فى الظروف الحرجة مخيب للآمال بل وخطر ٠ على اليهود ان يوقفوا الدعوة الى الحوار ٠ ويجب أن ينتظروا حتى تأتى المبادرة من الجانب الآخـر ٠ وعلى الصعيد الدينى ، يعنى هذا ان العالم المسيحى لا يمكن ابراءه من علله بعوامل خارجية ٠ عليه أن يشفى نفسه ٠ ولكن كيف ؟ هل يستطيع ، قبل فوات الأوان ، ان يستجمع الشجاعة كى يخاطب العالم دون غموض بشأن مطالب اسرائيل غير المشروطة - مطالبها التى تتمثل عدالتها فى سيادتها التى لا تنازع فى القدس ، نموذجا للتجديد اليهـودى ، ودحض العقيدة التى تقول باننا شـعب الله المرفوض ؟ » ٠٠

وعلى الجانب الآخر من التبصر الصهيونى بشأن الحوار المسيحى اليهودى ، كان الاقتناع المتزايد فى الدوائر المسيحية ان الحوار قد استخدم وسيلة لضمان الانصياع المسيحى للسياسة الصهيونية ٠ فلقد جاء اعلان تحول بينت فى أواخر عام ١٩٦٧ ، فى رد على الحاخام

بلفور بركنر فى أوائل سبتمبر ١٩٦٧ الذى جعل مسألة الدعم المسيحى لاسرائيل ضمن موضوعات الحوار المسيحى اليهودى ·

ولقد رأينا كيف وصفت النيوزويك موقف الحاخام تانينباوم من سخطه على المتمردين الامريكيين من السيطرة الصهيونية · وهى تقول ان هذا الزعيم الصهيونى الأمريكى يعتبر ان المواقف التى تتخذ تجاه دولة اسرائيل هى نوع من اختبار الشخصية للقاءات المعاصرة بين الأديان ·

a kind of « Rorschach Test » for contemporary interfaith encounters.

ونظرا لما كان يجرى من تحول داخل الجماعة المسيحية الأمريكية ، فان النيوزويك تقول ان الكثيرين يحسون بأن الحوار اليهودى المسيحى قد وصل الى آخر مداه على الصعيد المحلى – على الأقل (١) · ولهذا يرغب تانينباوم نفسه فى أن يوسع محادثاته لتشمل البوذيين والهندوس وحتى المسلمين أيضا (٢) ·

هذا – ولقد أدى التصميم على المطابقة بين معاداة الصهيونية ومعاداة السامية ان صار موقف المسيحيين الغربيين فى الحوار اليهودى المسيحى – كما يقدر ذلك الاستاذ أور – لا يمكن الدفاع عنه · ذلك ان هؤلاء المسيحيين يرفضون أن يقتادوا دون وعى الى الالتزام بمواقف سياسية مسبقة كثمن لاستمرار المناقشة · هنا تكون التضحية غالية – لأنها تعنى التخلى عن كرامة النقد الاجتماعى المسيحى ، وعن الاستقلال فى ابداء الرأى ، واهدار المبادىء

---

(١) ومن هنا كانت رحلة تانينباوم الى مجلس الكنائس العالمى مع زملائه كى يعبىء قوة الحركة المسكونية لتواجه التحول البارز لدى الكنائس الأمريكية المحلية وأتباعها ·

(٢) ولقد رأينا التأثير الفكرى الصهيونى فى مؤتمر كيوتو ·

الأساسية للحوار بمعناه الصحيح · ثم قطع الطريق على اللاهوتيين المسيحيين فلا يستطيعون الدخول فى حوار مع مذاهب أو أديان أخرى أكثر تحررا من قبضة الصهيونية (١) ·

فالمسيحية - فى كلمات الأستاذ أور ـ اذ تجد نفسها وسط عالمية ثقافية ودينية ، فان الابقاء على الصلات يصبح فى غاية الأهمية · والتعاطف السياسى مع فريق لا يسوغ أن يكون على حساب التضحية دون تدبر بقيم أخرى · هنا كما فى كل أمر آخر على اللاهوتيين المسيحيين التزام أوسع بقانونهم الذى يأمر بالحب ، الذى يصبح واقعيا أثناء بحثهم عن علاقات سياسية عادلة · ان نطاقا كاملا من القيم والمصالح يتوقف على الصمود المسيحى المتحرر من المواقف (السياسية التى تدعى ان لها أساسا دينيا مطلقا ومقدسا) (٢) ·

هذا هو النوع الأول من الحوار : الحوار الموجه · درسنا فيه النموذج المتعدد الأطراف ، والثنائى ·

فى هذا النوع لا يكون الحوار غاية فى ذاته من أجل ازدياد الفهم وتدعيم الاحترام المتبادل بين أطرافه · بل يكون وسيلة لصالح القوى التى تريد كبح الانطلاقة الروحية التحررية التى يحركها الدين فى نفوس المنتمين اليه باخلاص ، ليصبح أداة فى المساومة وتحقيق أهداف معينة ـ هى مصالح القوى السياسية والاقتصادية التى تريد استمرار سيطرتها وتبريرها بحجج وواجهات دينية · وليكون وسيلة ابتزاز وقهر ، بها يصبح أحد أطراف الحوار أداة فى يد الطرف الآخر يحقق عن طريقها مصالحه ·

---

(١) المرجع السابق ؛ ص ٣٤٧ ·
(٢) المرجع السابق ·

الفصل الثانى

الحوار المجرد

أولا : المتعدد الأطراف

اجتمع فى عجلتون بلبنان خـــلال المدة من ١٦ ــ ٢٥ مارس ١٩٧٠ أربعـة أطراف ينتمى كل منهـــم الى دين معين : ثلاثة من الهنــدوس ، وأربعة بوذيين ، وثلاثة مســلمين ، وثمانية وعشرون مسيحيا من بينهم خمسة من ممثلى مجلس الكنائس العالمى • جاءوا من عديد من بلدان آسيا (اليابان ، اندونيسيا ، والهند ، وسيلان، وتايلاند ، وسنغافوره) وأوروبا (انجلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، وفرنســا ، والفاتيكان ، وسويسرا) والولايات المتحدة وكنــدا والجزائر ومصر ولبنان •

لم يكن اللقاء مناقشة أكاديمية حول الحوار ، بل ممارسة عملية له • فهذا لا يطرح كمشكلة للبحث عن حل لها ولكن كخبرة يشارك فيها الجميع معا • كان اللقاء تجميعا لخبرة المناقشات الثنائية بين المسيحيين وأصحاب العقائد الكبرى فى آسيا• وللتعرف على ما يمكن عمله مستقبلا فى هذا المجال •

لم يكن اللقاء من أجل الوصول الى هدف بذاته - اتخاذ موقف عملى من نحو قضية بذاتها ، بل ان نقطة انطلاقه كانت الالتـــزام الكامل والمخلص من كل طرف بعقيدته - وفى نفس الوقت لا يقف هذا الالتزام عقبة فى طريق الحوار ٠

قدم المشتركون فى الحوار عدة مجموعات من الدراسات : عن الحوار الهندوسى المسيحى ، والحوار البوذى المسيحى ، والحوار الاسلامى المسيحى ، وعن الحوار بين العقائد الحية فى اليابان ، وعن الحوار والعبادة ٠ وتناقش المشتركون كلهم فى مجموعات خلال ثلاثين جلسة كل واحدة لمدة ساعة ونصف ساعة ٠ وكانت الجلسات تعقد أربع مرات يوميا ٠ وفى البداية كانت الحالة الحالية للحوار فى مجال معين تحدد ٠ والعقبات تشرح ٠ وتناقش فى هذا الصدد التقارير المقدمة من المشتركين فى الحوار الآتى من مختلف البلاد ٠ ثم تمضى المناقشة حول الموضـوعات العامة المشـتركة التى تواجه لقاءات الحوار فى مختلف مجالاته وأماكنه ٠

وكانت هناك فترات للعبادةالمشتركة بقيادة واحد من الحاضرين حضورها كان اختياريا لكل واحد ٠ ولم يصدر عن اللقاء بيان أو قرارات ، بل طلب الى أربعـة من الحـــاضرين : هندوسى وبوذى ومسيحى ومسلم ان يكتب كل واحد انطباعه عن المؤتمر ٠

ثم طرح بيان المؤتمر بعض المقترحات العملية بشأن الحوار على المستوى المحلى ، والاجتماعات المقبلة التى يمكن ان تشارك فيها أديان أخرى مثل اليهودية والأديان الافريقية ، وأوضح البيان بعض التوصيات بشأن مناهج التربية وفى الكليات اللاهوتية والمؤسسات التعليمية والكتب الدراسية (١) ٠

---

(١) نشرت الدراسات والبيان فى كتاب :
Dialogue between Men of Living Faiths. Papers presented at a =

وفيما يلي بعض ما جاء في الانطباعات التي تضمنها البيان

كتب هندوسي :

ليس القصد من الحوار مواجهة الآخر واحتواءه ·

الحوار يهدف الى انقاذ الانسان من الضياع في شعوره بالاكتفاء الذاتي ·

الحوار يعطي احساسا بعدم الاكتمال ، وبالحاجة الى الآخر : هذا لا يعني اعترافا بالنقص في عقيدة الواحد - بل هو الوصول الى مصدر جديد من القوة ، لم يكن الشخص قد اكتشفه بعد في دينه ·

ولديه أن الحوار مع الأديان الأخرى هو أحد أشكال ممارسة الانسان لايمانه الشخصي · انه الافصاح عن النور الكائن في هذا الايمان ·

الحوار ممكن ومثمر · يجعل من الميسور فهم الانسان كانسان · ولفهم الحق الأعمق الذي يقدم عنه الانسان شهادة تسمو به الى الحرية الروحية والى رؤية الحضور الالهي في جميع الخبرات الدينية ·

وكتب بوذي :

هذا اللقاء جعل المشاركين فيه يتصرفون بروح التعاون لا المنافسة ·

كنا قادرين على أن نناقش في حرية أفكارا وعقائد تختلف عما يعتنقه البعض ، ولكن في مناخ ودي تماما · ولكننا وجدنا ان

= consultation held at Ajaltoun, Lebanon, March 1970, ed. by S.J. Samartha, WCC, Geneva, 1971.

ونشر البيان في Study Encounter, vol. VI, No. 2, 1970, p. 97 ff.

مشكلة دلالة الالفاظ الخاصة بكل عقيدة كانت عقبة رئيسية فى التفاهم ·

ومن هنا ضرورة أن يكون هدف أى حوار مقبل هو – مع تمسك كل واحد بعقيدته تمسكا كاملا – محاولة اجراء مزيد من التفهم – فى انفتاح وصراحة – لعقائد بعضنا البعض ، دون أى تحريف ، أو أفكار مسبقة أو أحقاد · وبهذا يزدهر مناخ التسامح والصداقة ·

ولديه أن الحوار يجب ألا يظل محصورا فى المستوى الأكاديمى بل أن يأخذ مكانه على كل مستويات المجتمع ·

وكتب مسيحى :

اختبرنا كيف صار ممكنا ان يغوص الواحد فى اعماق الآخر · وجدنا الحوار ملحا · يطرح السلبية والعدوان · يكتشف فيه كل طرف جدية الآخر ·

وهو يعتقد ان خبرة هذا الحوار تجعله يعتبر أن ثمة اختبارا لصحة ايمانه – هو : كيف يتعامل مع باقى الأديان ·

ان حقيقة التباين بين الاديان ، هى مجال التكامل – فيما بينها ·

ان التفكير فى أمور الله تفكيرا صادقا ، يعنى الحياة بين البشر فى رعاية لهم ·

ثم ان هناك واجبا تفرضه حصيلة الحوار على من شارك فيه ، أن يشيع هذه الخبرة بين زملاء دينه · الحوار الداخلى ليس أقل ضرورة من الحوار مع الخارج ·

وكتب مسيحي آخر :

في الحوار يكتشف الشخص المنتمى الى عقيدة معينة ، وعلى الرغم من التزامه الديني ، انه في احتياج الى بعض النقط التي تؤكد عليها بالاكثر عقيدة أخرى ·

يحيا الانسان دينه على حدود العمق الروحي لعقيدة أخرى·

رفض اساليب التبشير التي تشـــوه العـلاقة بين الاديان والكرامة الانسانية وحقوق الانسان · هنا يظهر أن مسألة الحرية ؛ هي شرط مسبق ليس فقط للحوار ، بل لكل حركة ابعد من ان تكون مجرد مواجهة بين المعتقدات · (١)

وكتب مسلم :

الحوار علاقة رجاء ــ سواء للانسان داخليا أو في علاقته مع الآخـــرين ·

ولدت خبرة هذه الأيام التسعة التي عشناها معا شيئا جديدا في نفوسنا : اننا جميعا كنا بالغي الضآلة أمام الله ــ فلا نصل الى مستوى المجـادلة بشـأنه فيما بيننا · ولهذا لم يكن ثمـة بد من الانصياع له ، والصلاة اليه ، وطلب ارشاده ·

من هذا الشعور الغامض الخلاق تولدت رابطة عميقة فيما بيننا نحن المختلفين عقائديا ــ رابطة لم تكن موجودة من قبل ·

كنا نشـعر بحاجة مشتركة ــ الواحد للآخر ، كي يسـاعده ويقدم له مختلف الأساليب التي تكلم الله اليه بها ·

---

(١) S.J. Samartha, « More » than an Encounter of Commitments, dans, Living Faiths, op. cit., p. 101.

ولهذا فان حوارنا لم يكن النهاية – بل البداية : خطوة فى طريق طويل يجب أن نحذر فيه من أن يصبح الحوار اداة اجتماعية، قبل أن تكتمل قوتها وتجرى فى كل شخص التغيير الذى يصل به الى النضوج ، والقدرة على المواجهة · ومن هنا ضرورة ممارسة الحوار داخل الأوساط التى نحيا فيها ·

وضـح من الحـوار ان للأديان الثلاثة : المسيحية والاسـلام واليهودية منبع واحد ، ففى أثناء نقاش اسلامى مسيحى ، وضـح الاحتياج المتبادل · أوضح مسلم ان الاسلام وقد بدأ تاريخه من مركز قوة وانتصار يحتاج اليوم الى الفكرة المسيحية عن الألم ، الذى هو طريق الانتصار · فأوضح مسيحى على الفور ان المسيحى يحتاج الى الفكرة الاسلامية عن سمو الله وقدرته التى لا تحد · ومفارقته لكل الكائنات ·

الشعور بالاثراء المتبادل كان يسيطر على الحوار الاسـلامى المسيحى بالذات ·

وكان ثمة احساس بأن الحوار غير مكتمل بدون النظر الى أسباب التوتر والنزاع فى العالم ، القضية الفلسطينية ، عدم الثقة والعنف فى العلاقات الطائفية بالهند ، التوتر البوذى المسيحى فى سيلان ، المواجهة المسيحية الاسلامية فى أندونيسيا ·· الخ ·

وكتب مسلم آخر من الهند :

الحوار حب ومعاناة معا · فمهما تكن نوايا الطرف الذى يدعو الى الحوار ، فان الحقيقة العليا هى ان « الحوار الحقيقى والأصيل يكون دائما أكثر من نوايا أولئك الذين يلتقون معا » ·

ثم هناك أيضا « الشعور بعدم الكمال وبالاحتياج المتبادل » الذى يقود الحوار الى ما هو أبعد من أن يكون مجرد لقاء بين عقائد مختلفة ·

ولدى الأستاذ عسكرى ، كانت مناسبات العبادة ذات دلالة خاصة ، وما كان هاما لديه ليس ما يقال أثناء هـذه الفترات بل « الاشتراك فى الشعور بالحضور الالهى » يستجيب له كل فريق طبقا « لتقاليده وحالته الروحية الشخصية » ٠

« وكانت العبادة المسيحية واحدة من أعمق النقط التى يشارك خلالها مسلم فى ما هو عام ومشترك بين المسيحية والاسلام » (١) ٠

ولقد حظى لقاء عجلتون باهتمام كبير فى أوساط مجلس الكنائس العالمى ٠ واعتبر عملية اختبارية وتجريبية ٠ ومن أجل دراسته ، وتقويم نتائجه عقـــدت ندوة استشارية فى مايو ١٩٧٠ بزيورخ حضرها ٣٣ لاهـوتيا جاء منهـم ٣٠ من أوروبا وأمريكا وثلاثة من افريقيا وآسيا (٢) ٠

وانتهت هذه الندوة فى تقريرها الى أن الحوار الآن أصبح حتميا ، وملحا ومليئا بالفرص ٠ وناقش التقرير عملية الحوار من وجهة نظر اللاهوت المسيحى ٠

وحذر التقرير من انه « لا ضمان بشأن نتيجة الحوار ٠٠ ويمكن أن يمسخ الحوار الى شغف بالمناقشة الفكرية السوفسطائية من أجل توافق زائف ٠٠ » ٠

ولكن اعتبر الحوار الموضوعى هادفا الى التعبير عن الحب ، فيه تتخلى الجماعات عن تخوفاتها وعدم ثقتها من بعضها البعض ٠ ولهذا السبب على المسيحين مسئولية الدخول فى الحوار سواء على المستوى الاقليمى الخاص أو العالمى ٠

---

(١) سامارتا ؛ المرجع السابق ، ص ٩٨ ٠

(٢) نشر تقرير الندوة فى
International Review of Missions, October, 1970.
وكذلك نشر فى
Living Fa'ths. op. cit., p. 33.

وفى النهاية يقول التقرير اننا اليوم نستكشف بعدا جديد ـ ويجب أن نجهد لنكون واقعيين من نحو الاخطار كما أيضا بالنسبة للآمـــال ٠

وقدم الدكتور ستانلى سامارتا الى هذه الندوة دراسة عن لقاء عجلتون ٠ قال فيها ان هذا اللقاء كان أكثر من مواجهة بين مواقف ملتزمة تصدر عن أشخاص منتمين الى عقائد متباينة يعبر فيه كل مشترك عن أعماق التزامه الايمانى دون محاولة لتجاوز مواقفه ٠

ولكى يوضح رأيه ، ذكر انه مع حدوث لقاء بين أديان متعددة فان ثلاث صور من الحوار يمكن أن تظهر ، وهى مترابطة ولا يستبعد الواحد منها الآخر :

النوع الأول فيه يمكن أن يكون الحوار مناقشة استقصائية فيما بين قوم يواجهون احتياجات مشاكل مشتركة ٠ فهو اذن تساؤل تعاونى ، بحث عن الحق من خلال الاستبعاد التدريجى للأخطاء ٠ ويؤدى الى تراكم متزايد للمعرفة يمكن أن تختبر وتحقق ويمكن أن تكون نافعة للمجتمع ٠ هنا تكون حـــرية التجريب ، والأمانة الفكرية والانفتاح على الحق ـ غاية فى الأهمية ٠ ويمكن بهــذه الطريقــة أن تدرس الأديان باعتبارها ظواهــر تاريخية ، وتــكون الحصيلة نافعة فى زيادة الفهم لدى المشتركين فى الحوار ٠

النوع الثانى ـ يكون فيه الحوار مواجهة بين مواقف ملتزمة يتمسك بهـا أصحابها فى اصالة وبقوة واخلاص ٠ هــذه العقائد بالنسبة للمؤمنين بها هى مسائل تتوقف عليها الحياة أو الموت ٠ وانه ليكون من الغباء أن يتجاهل أحد ان لكل دين قديسيه وشهداءه ـ وان كان يمكن أن يعتبر اتباع دين معين قديسى الآخر هراطقة ٠

ولو ان حوارا أمكن له أن يجرى فى هذا المجال – فان الشرط المسبق له هو الاعتراف بحرية البشر فى التمسك بعقائدهم . واحترام الجميع لهذه الحرية . هنا يكون المحور الأساسى الذى تقوم عليه العملية ليس الصواب والخطأ بقدر ما هو الحرية . ليس معنى هذا ان مسألة الحق تستبعد ، ولكن الحق يكون من العلو بحيث لا يصبح احتكارا لجماعة واحدة بذاتها بل يبحث عنه الجميع من خلال ممارسة الجميع للحرية . وبدون الحرية يكون مثل هذا الحوار مستحيلا .

النوع الثالث – من الحوار يعتمد على الثانى ولكن يمضى الى أبعد منه ويمكن أن يطلق عليه انه « أكثر » من مواجهة بين مواقف ملتزمة .

وفى رأى سامارتا ، كان حوار عجلتون يدور بين النوعين الثانى والثالث . لقد كانت بدايته – بدون شك – مواجهة بين مواقف ملتزمة كما هو المتوقع حين يلتقى أشخاص ينتمون الى أربع عقائد حية مختلفة – لمدة عشرة أيام من التفكير العميق . كل أصحاب عقيدة يلتزمون بايمانهم ، وحين جاء الجميع لم يكونوا على يقين مما يتوقع حدوثه . ولكنهم مع ذلك كانوا على استعداد للانصات – كل فريق لما يقوله الآخر .

هذا المناخ – كان أحد الأسباب التى أوجدت لحظات حدث فيها تجاوز للحدود الموضوعة بين الأديان التقليدية . وكان البعض يعبر الحدود ويعود الى داخلها دون أن يعترف بذلك دائما .

هذا الدخول الى مجال « الأكثر » من الحوار يرجع الى أن

المواجهة الجـــدية بين المواقف الملتزمة لابد وأن تثير معنى الالتزام نفسه ·

ان الالتزام لا يمكن قط أن يكون موقفا حاسما ونهائيـــا كالصخرة · انه تصديق وتساؤل – طريق وهدف – وصـــول وانطلاق ·

ومن الطبيعي أن يكون من الصعب تحديد معنى « الاكثر » في هذا المجال · وهذا بسبب طبيعة التجربة كمحاولة · ولان هذا « الاكثر » يصعب صياغته في كلمات · المسألة تتوقف على درجة انفتاح القلب والعقل لدى المشتركين ، وتقبلهم للاهتمامات الانسانية المشتركة · وتقارب المسار التاريخي للأديان المختلفـة ، والشعور بمشاركة كل طرف في الخبرة الدينية التاريخية والمعاصرة التى للآخر ··· حينئذ كانت لحظات الوصول الى « الأكثر » تتحقق في عجلتون · (١)

وكتب د · دافيد جنكنز مدير دراسات الانسان بالمجلس ، وكان مشاركا في حوار عجلتون ، يقول ان الخبرة المستخلصة من هذا اللقاء هي ان الاشخاص الملتزمين ، المؤمنين بمختلف العقائـد الدولية التقليدية يمكنهم – بل هم استطاعوا بالفعل – أن يجدوا انطلاقا من منطق التزامهم وايمانهم ، انهم يشاركون فقط في بعض مظاهر نقطة بداية مشتركة ، وموقف مشترك ، ونهاية مشتركة ·

ويقرر في موضوعية انه لايدعى ان عجلتون افترضت أو أكدت شيئا من نوع الزعم بأن جميع الأديان انما تنطلق – في الحقيقة – من منبع مشترك ، وتنظر الى العالم نظرة متشابهة ولها هـدف مشترك ظاهر ·

---

(١) Samartha, More...., op. cit.

« ان ما أقوله أكثر تعقيدا ، انه شيء تجريبي ، واقعي ، مفعم بالأمل الى أبعد من أي صياغة تبسيطية من النوع المزعوم ٠

« العنصر الواقعي والأولى هو ان البشر المنتمين الى العقائد الحية يمكنهم أن يساعدوا بعضهم بعضا في الوصول الى لمحات تشير الى أنهم في طريقهم المتنوعة وغير المكتملة ، انما يصدرون - الى حد ما - عن منبع مشترك ، ويعيشون في عالم مشترك ويبحثون عن اكتمال مشترك ٠ وهم يعملون ذلك خلال تقاليدهم الدينية المتنوعة - وخلال الأساليب التي يجهدون أن يعبروا خلالها عن الالتزام الذي تطالبهم به هذه الأديان » ٠

ويؤكد جنكنز فائدة الحوار في تقوية الالتزام بدين كل طرف وممارسته له ٠ فلديه أن شرح خبرة كل مؤمن بدين لعقائده وممارسته اياها انما يعتبر اثراء لموارد المؤمن بالدين الآخر أثناء تفهمه لدينه وممارسته لعقيدته والتزامه بها ٠ ولذلك فان خبرة عجلتون في رأيه تجعل من الحتمي التقدم بالحوار باعتباره مهمة أمينة تتطلبها أسباب نابعة من داخل كل من الأديان المشاركة في الحوار ولممارسته أفضل ممارسة ٠ (١)

علينا الآن أن نتعرف على الجديد الذي أتت به خبرة هذا الحوار فيما يتعلق بالمبادىء الثلاثة التي كانت النظرة الغربية للأديان الاخرى تقوم عليها في عصر ما قبل الحوار - كما سبق ان أوضحنا :

---

(١) David Jenkins, Commitment and Openness, dans, Living Faiths, op. cit., p. 109.

(أ) لم يعد لمبدأ «الاستبعاد المتبادل» مكان في العلاقة بين الاديان ٠
هنا لقاء يقوم على الاحترام المتبادل ، وعدم الادعاء باحتكار الحق ، والحرية في ابداء الرأى واعلان الالتزام بالعقيدة ٠

(ب) لم تعد العلاقة بين الاديان تتم في اطار العلاقة بين الخارج الوافد والداخل المحلي بل أصبح للمسيحيين المحليين ولأصحاب العقائد الأخرى غير المسيحية مكان كطرف أصيل في الحوار ؛ يقول سامارتا : « كانت المناقشات في الماضي تدور في اطار غربي بحت ، ومن خلال الفكر والاساليب الغربية ، ولم تكن هذه المناقشات تستنير أو تحس بما لدى المسيحيين من البلاد الاخرى من أعماق ومفاهيم ٠ أما في السنوات الاخيرة فقد اشترك في الحوار هؤلاء المسيحيون خصوصا من آسيا وافريقيا ، الذين لهم تراث ثقافي مختلف عما لدى الغربيين، وخبرة طويلة بالحوار (في بلادهم) ٠ بعد ان كانت مشاركة هؤلاء في عهد مؤتمرات الارساليات مجرد هوامش للمناقشة الغربية الدائرة حول الأديان الأخرى » (١)

وفي عجلتون لم يشترك المسيحيون غير الغربيين وحسب ، بل شارك في الحوار أيضا غير المسيحيين من بلاد غير غربية ٠ وتأتي هذه المشاركة بعد سلسلة طويلة من لقاءات الحوار المحلية في كل بلد بين أصحاب الأديان المختلفة فيه ٠

على انه لا بد من تحفظ :فالمبادرة للحوار ما زالت تصدر من الغرب ، وتعقد تحت اشراف منظماته المسيحية ٠ وتظل أغلبية المسيحيين الحاضرين من الغرب ٠ ففي عجلتون لم يكن من بين الأعضاء

---

(١) S.J. Samartha, Dialogue as a Continuing Christian Concern, dans Living Faiths, op. cit., pp. 141-145.

المسيحيين الثماني والعشرين سوى أقلية بسيطة من مسيحي البلدان غير الغربية ٠

(ج) لم يعد هدف الحوار تغيير عقيدة الآخر كما كان الشان أيام الارساليات ٠ ولكن من ناحية أخرى احتفظ النقاش بطابعه النظرى ، مع اشارة الى ضرورة الممارسة ٠ ولم يستطع المشتركون في لقاء عجلتون ان يستخلصوا من مناقشاتهم النظرية وتأملاتهم العميقه طرفا عملية لهده الممارسه ٠ هذه الأخيرة تبدت فقط خلال لحظات العبادة المشتركة ٠ هنا أيضا نظل في اطار الفكر والمواقف المجردة ؛ فلم يصدر عن المؤتمر شيء بصدد الفلسطينيين الذين تحيط خيامهم بمكان انعقاد المؤتمر ، ولا بشأن فيتنام التى جاء من منطقتها عدد من أعضائه ٠

حين عاد الاب الكاثوليكى المصرى د ٠ جورج شحاتة قنواتى من لقاء عجلتون تحدث الى مجله Le Messager عما دار أثناء الحوار (١) ، فكان من بين ما قاله ان الأعضاء الآتين من الشرق الأدنى « المسيحيين والمسلمين » حاولوا ــ استنادا الى القرارات الصادرة في كنتربرى وقبرص وجينيف من لجان مجلس الكنائس أن يصدر مؤتمر عجلتون رسالة باسمه من أجل تحقيق السلام في فلسطين ، ولتأييد الشعب الفلسطيني المطرود من أرضه في الحصول على حقوقه ، وفي كفاحه لاسترداد كرامته ٠ وتحدث مسيحى أرثوذكسى من حلب ــ انضم ابنه الى الفدائيين ، وأوضح ضرورة اتخاذ موقف عملى من المؤتمر في صدد مشكلة حادة وعاجلة ٠

---

(١) ٣ و١٠ مايو ١٩٧٠ ٠

يقول الاب قنواتى « ولكن جهودنا كانت بلا طائل : كانت أغلبية الحاضرين لاتشعر بنفس احساسنا من نحو الموقف المأساوى لفلسطين العربية · وقد تكون ـ هذه الاغلبية ـ علاوة على ذلك ، ودون أن تشعر متأثرة بالدعاية الصهيونية الماهرة · ولهذا رفضت أن تخاطر فى التدخل فى مشكلة وصفتها بأنها ذات طبيعة سياسية » ·

وذكر الاب قنواتى انه حين سألت الصحافة اللبنانية رئيس المؤتمر ، الأستاذ الالمانى د · مارجل Margull عن سبب هذا الموقف أجاب بأن الهدف الأساسى من اللقاء هو اجراء الاتصالات بين العقائد الدينية · ولذلك كان من اللازم تفادى بحث المسائل الاجتماعية والسياسية دون اعداد مسبق ·

ولدينا انه قد يكون من أسباب عدم اتخاذ مواقف عملية ، نابعة من الالتزام الدينى من نحو كرامة الانسان فى مثل هذا المؤتمر ـ ان المشاركين فيه ، لم يختبروا معا الحياة فى مجتمع تعددى ، تواجهه تحديات مشتركة وتبذل الجهود بالتعاون لتخطيها ·

بل ان بعض المشاركين ـ أغلبيتهم ـ جاءت من بلاد الاستعمار والارساليات وبعضهم ما زالت فى بلادهم مظاهر المنازعات الطائفية والدينية : الهندوسيلان واليابان وأن كان يكافح لخلق المجتمع المتناسق المتعاون ·

وان المؤتمر يعقد بمبادرة غربية ، وباشراف منظمة لها موقفها النظرى من نحو المشكلة ·

وأن بعض المشتركين فى المؤتمر يدينون بالنظرية البوذية التى تمنع المؤمن بها من اصدار أحكام أخلاقية أو الارتباط بالتزام

اجتماعى (١) • وقد رأينا آثار هذه النظرة فيما سبق (٢) •

ونحن نرى ان الامتناع عن اتخاذ الموقف العملى هو السبب الرئيسى الذى يجعل مثل هذا الحوار مخاطرة غير مضمونة النتائج، معرضا لاحتمال أن يكون مناقشة سوفسطائية • دون امكانية التنبؤ بثقة عما يمكن أن تسفر عنه (٣) • ان الممارسة وحدها هى التى تضبط الفكر وتجسده واقعا حيا وترسم له طرقه الواضحة والمأمونة ولتكون معيارا لمدى سلامته • فالمواقف المطلوبة هنا هي التى تنبع من مبادىء الأديان التى تحقق العدالة والخير والحب ولا تتعارض مع عقيدة مشاركة فى الحوار – مواقف لاتفرض مقدما ويستغل الحوار للوصول اليها ، ولا تستخدم أساليب ضغط أو اغراء أو ابتزاز من أى نوع للوصول اليها •

وبدون الممارسة يظل الفكر – على نحو ما – فى الحالة التى وصفها اللاهوت المسيحى منذ القرن الأول بالغنوصية • تهتم أساسا بالفكر ، وتعزله عن العالم • والخلاص لا يتأتى الا بالمعرفة – فهى التى تحرر الانسان ، وتجعله قادرا على تخطى جميع العقبات التى تواجهه •

ولكن الاقتصار على المناقشة المعرفية والتأمل يجعل الحوار يمضى فى طريق مسدود : الواقع الذى يعيش فيه المتحاورون ،

---

(١) Masatoshi Doi, Dialogue between Living Faiths in Japan, dans, Dialogue, op. cit., p. 39.

(٢) انظر مقال مجلة تايم ١١ ديسمبر ١٩٦٤ المشار اليه •

(٣) انظر تقرير ندوة زيوريخ المشار اليه فيما سبق ، وانظر أيضا : S.J. Samartha, Introduction, dans, Dialogue, op. cit., p. 11

والقوى التى تتحكم فيه ؛ هذا كله يمنعهم من اتخاذ الموقف ــ ولكن هذا الموقف نفسه هو المنقذ الوحيد للحوار ·

ولقد أحس بعض المشاركين فى الحوار بهذا النقص ، ولهذا كان الالحاح فى كثير من الاوراق المقـــدمة للمؤتمر على ضرورة الممارسة ، وعلى الحوار فى الاطار الاقليمى داخل جماعة بذاتها ، حيث تكون امكانية ممارسة المبادىء والعمل المشترك متاحة أكثـر منها على الصعيد العالمى المتسع الذى لا يحتمل ســوى اعـلان المبادىء (١) ·

هذا ، ولقد اعتبر الجميع هذا النوع من الحوار فى بدايته ·

وفى حقيقة الأمــر ، فان برنامج الدراســة الذى وضــعه د · سارماتا فى ١١ يناير ١٩٦٩ ، يؤكد على ضرورة التعاون من أجل المواجهة المشتركة لقضايا التنمية فى المجتمعات المحلية · ويقول ان التعاون الاجتماعى بين جميع المواطنين على اختلاف أديانهــم وعقائدهم أمر حيوى لنجاح جهود التنمية ، والتقدم الاجتماعى ، والتطور الثقافى · ولهذا يقول ان بؤرة الدراسة ليست فى مناقشة العقائد والتقاليد والشعائر والنظم بل تعنى الدراسة فى المحـل الأول بالأسس التى تزود البشر أثناء نشاطهم فى عالم اليــوم بالقوة والهـدف أى كيف يطبقون فى الواقع عقائدهم · فالحـوار

---

(١) انظر تقرير زيوريخ المشار اليه · ومقالات سامارتا وجنكنز الســابق ذكرها · وانظر أيضا المقالات التالية المنشورة ضمن الكتاب المعد عن هذا المؤتمر والذى سلفت الاشارة اليه

Klaus Klostermeir, Hindu, Christian Dialogue, dans, Dialogue... op. cit., p. 11.

Sivenira Parakash, Hindu Christian Dialogue Postponed, op. cit., p. 27.

Lynn de Silva, Some Issues in the Christian Buddhist. Dialogue, op. cit., p. 53.

لا يدور بين أفكار مجـــردة ولكن بين بشر يوجدون معا فى مواقف نجعلهم يهتمون اهتماما موحدا بالحياة فى بلادهم ويتعاونون فى هذا المجال (١) ٠

وليس من شك فى أن للتنمية وللتطور الاجتماعى منطقـــا وأساليب لابد وأنها ستؤثر فى الحوار نفسه وتوجه مساره وتجعل الواقع الحى حاضرا أثناء المناقشـــات النظرية وتثير قضايا بالغة الخطورة حول مدى تأثر التنمية نفسها بهذه المناقشات ٠ هـــل يزداد معدل سرعتها ويتعمق مفعولها ، أم يكون الحوار عـــامل تعطيل وارتباك ٠٠ ومن ناحية أخرى فان لمجلس الكنائس مفهومات معينة للتنمية ـ رأينا بعض نواحيها فى كلمة د ٠ بليك فى مؤتمر كيوتو ٠ وبشير د ٠ سامارتا أيضا فى برنامجه الى اهتمام المجلس بالتنمية ٠ فما هو أثر فكر المجلس بشأن التنمية على الحوار ،وما هو أثر الحوار على مفهوم المجلس للتنمية ، وما هو أثر تجـــارب التنمية العملية على الحوار ٠٠٠

هذه كلها قضايا ومشاكل ستظهر تباعا مع الممارسة ٠ ومهما يكن من أمر فلعل النقص الذى تبدى فى هذه المرحلة يستكمل فى المراحل القادمة من الحوار ـ خصوصا اذا ما اشترك فيه جديا ، ووجه مســاره ممثلون لجماعات تحقـق فى داخلها بالفعل التعاون والوحـدة بين جميع المواطنين مـع اختلاف أديانهـم وعقـائدهم ٠ فاستطاعوا بذلك أن يحققوا ممارسة أصيلة ذات معالم نظرية وعملية واضـحة ، يمكنهم أثناء الحـوار أن يقدموها للدراســة والانتفاع بدروسها ٠

---

(1) The Word of God and the Living Faiths of Men. A Study Programme Department on Studies in Mission and Evangelism, SME, 69 : 3, pp. 2, 3, 8.

ثانيا ـ الحوار الثنائى المجرد

نعنى به الحوار الاسلامى المسيحى الذى يتم فى اطار الغرب، وبمبادرات وتنظيم منه ، ولا يصدر عن ـ أو لا يؤدى الى ـ حياة مشتركة واضحة المعالم ، وممارسة عملية محددة ·

وفى حقيقة الامر فان الحوار الاسلامى المسيحى الذى دار عبر القرون على الأرض العربية وفى مصر بالذات هو أنقى نموذج للحوار يستكمل مقوماته الاساسية :

ففيه ـ وكما سنفصل فيما بعد ـ عنصر نظرى غير موجود فى أى صورة أخرى للحوار : اعتراف الاسلام بالمسيحية · هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الحوار تجرى ممارسته يوميا على الصعيد العملى فى حياة مشتركة لجماهير المسلمين والمسيحيين·

ولكن لقاءات الحوار الاسلامى المسيحى التى تحدث فى الاطار الغربى لا تكاد تحس بتميز هذا النوع من الحوار · فهذا بالنسبة للدوائر الغربية أحد صور الحوار التى تجرى مع الاديان والعقائد الأخرى ، كما ان الاحساس بالعنصر العملى مفتقد · بل يظل الحوار دائرا بين مثقفين على أعلى مستوى من العلم · يناقش الفكر ويمارس التأمل · ومن هنا اختلاف الحوار الاسلامى المسيحى فى الاطار الغربى عنه فى الحياة العربية ـ المصرية بالذات :

(أ) يبدأ الحوار الاسلامى المسيحى الغربى باقرار الجانب الغربى بالاعتراف بالذنب بسبب ما حدث من الغرب للاسلام دينا وشعوبا ودولا (١) · هنا شىء قريب مما

(١) Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians, by Secretariatus pro Non-Christianis, Libreria Editrice Ancora, Roma, 1969, p. 17.

وانظر ما كتبته مجلة الحوادث اللبنانية بخصوص هذا الكتاب ، ابريل ١٩٧٥ ·

يبديه الغرب أثناء الحوار اليهودى المسيحى - وان كانت الأسباب مختلفة ٠ فقد وضح ان الغرب يرفع شعارات المسيحية النبيلة السامية دون أن يطبقها ٠ وتكفى الاشارة الى الحروب التى أغرق الغرب العالم كله فيها ٠ والى تركة الاستعمار والارساليات ٠ يضاف الى ذلك بروز دول العالم الثالث - بشعوبها وثقافتها وثرواتها ٠

هذا الموقف لا يوجد فى الحوار الاسلامى المسيحى على الارض العربية ٠ فمن ناحية ، لم يكن العدوان الغربى على البلاد غير الغربية قاصرا على الاسلام أو المسلمين ٠ بل ان الكنائس المسيحية والمسيحيين المنتمين اليها المتمسكين بها كانوا محلا لسخط الغرب ٠ والمقاومة للهجمة الغربية ، كانت مشتركة - بل انها كانت فى مقدمة مجالات الحياة المشتركة بين مواطنى هذه البلاد ٠ وفى مواجهة الارساليات كانت الكنائس الوطنية هى خط الدفاع الأول وفاعليته مضمونة ٠ لذلك فان هذا الاعتراف بالذنب - مهما بدا براقا ، لا يمكن تعميمه على الجانب المسيحى فى الحوار اذا اشترك فيه أحد من المسيحيين من أبناء الكنائس المحلية ٠

ومن جانب آخر فان الحياة المشتركة على هذه الارض كانت قادرة على تصفية التوترات التى تظهر بين المواطنين أولا بأول ٠ وتجرى فى الفكر العربى مراجعة مستمرة ، تلقائية ، لنواحى الحياة المشتركة ٠ هذه الحياة نفسها لها منطق يفرض ذاته ، يواجه أى انحراف ٠ والمستقبل دائما يحقق تقدما - فى الفكر والتنظيم والتطبيق - عما سبقه ٠

(ب) يدور الحوار فى نطاق المجردات - فى اطار العلاقة مع المطلق ٠

هذه هي العلاقة الجوهرية التي تتحكم في الحوار ـ من خلالها ينظر كل طرف الى الآخر (١) · والهدف من الحوار هو الوصول الى الحق (٢) – وتعميق المفاهيم الدينية من أى نوع ، وتشجيع الممارسات الروحية (٣) ·

وغنى عن البيان ان هذه كلها أهداف نبيلة · وهى تجعل هذا النوع من الحوار أسمى من الحوار الموجه · فليس من شك فى أن مناقشة المثل العليا تطرح تأثيرها على الحياة العملية · كما ان تبادل الخبرات فى هذه اللقاءات العالمية يجعل من الممكن لجماعة محلية معينة أن تؤثر فيما يجرى فى جماعة أخرى أو تتأثر به ·

ولكن يبقى ان الفكر المجرد يظل بلا فاعلية ، ما لم تصحبه الممارسة ، ويتجسد مواقف واقعية حية · ولقد أحس بذلك دارسو هذا النوع من الحوار فوجدناهم يقررون فى مقالاتهم وتقاريرهم ندواتهم بأنه ليس ثمة نتيجة مضمونة للحوار ·

فبدون هذا التجسيد العملى ، يتعرض الحوار للخطر الذى شخصه المفكر المغربى عبد الله العروى – فليس من شك فى ان الغرب قد تخطى اعتبار الدين مصدرا لوعيه بنفسه . فللرجل الغربى مشاغل أخرى ـ لهذا يرسل الى الحوار الدينى نظراء للقادم من المجتمعات الاخرى ، فيجد الشيخ أو القس أو المفكر غير الغربى أمامه وعيا للغرب جرى تخطيه تماما ولم يعد الغرب يجد نفسه فيه ـ ويكف الحوار عن ان يؤثر فى الغرب · ويسمع غير الغربى حديثا مماثلا لما سمعه الشيخ محمد عبده من سبنسر « ان الانجليز آخذون فى الانحطاط ·· فى ميدان الفضيلة والاخلاق ، وذلك

---

(١) Guidelines, op. cit., pp. 14, 15.

(٢) تقرير ندوة زيوريخ المشار اليه ، رقم ٤ ·

(٣) Guidelines, pp. 28, 29.

بسبب الأفكار المادية المتقدمة باستمرار ·· » الغربى هنا يستعير لغة المثالية الدينية · ويتساءل العروى عن من يربح فى هذا التفكير غير الصادق ؟ ويجيب : بالتأكيد ليس المجتمع العربى ··(١) ·

وهنا يكثر نقد التصنيع واستخدام التكنولوجيا والعلمانية ··· الخ وينحصر الحوار فى المجردات · فيظل بلا فاعلية ، نقاشا حول التراث كأثر تاريخى لا باعتباره ــ كما يقول د عبد العزيز كامل ــ حقائق متطورة لها تأثيرها على الحياة المعاصرة والمستقبلة أيضا (٢) ·

كان هذا هو الطابع الغالب الذى جرى فى اطاره الحوار الاسلامى المسيحى فى لقاء برمانا بلبنان من ١٢ ــ ١٨ يوليو ١٩٧٢ اجتمع فيه ٤٦ عضوا مناصفة بين الفريقين ، أتوا من عشرين بلدا للتدارس حول تنمية التفاهم بين البشر· وطرحت أربعة موضوعات: الأديان والشعوب والجماعة العالمية · الحق والوحى والطاعة · العلاقات بين المسيحيين والمسلمين · الصلاة والعبادة (٣) ·

وهكذا دار الحوار فى مجموعه فى اطار المجردات ، وحين سئل د لوكاس فيشر رئيس لجنة الايمان والطقس F. and O. بمجلس الكنائس ــ وكان حاضرا فى برمانا ــ عما دار فى اللقاء ، قال :

« ان حوارا من هذا النوع لا يتم الا ضمن حدود هذا العالم · أى انه يتم فى مجتمع أو فى اطار سياسى معين · فلابد اذن من ان يجعلنا أكثر تحسسا بمشاكل العدالة والسلام » ·

---

(١) الأيديولوجية العربية المعاصرة ، توجمة محمد عيتانى ، دار الحقيقة بيروت ؛ ١٩٧٠ ؛ ص ٦٦ و٦٧ ·

(٢) حديث بمناسبة المهرجان الاسلامى بلندن ، الأهرام ١٩٧٤/١٠/٣٠ ·

(٣) نشرت الابحاث فى Christian-Muslim Dialogue, Papers presented to the Broumana Consultation 12-18 July 1972, W.C.C., Geneva, 1973.

كيف ؟

« لم نتطرق الى مشكلة الشرق الأوسط . انما تباحثنا فى التقاليد المسيحية والاسلامية . لكن بما اننا بشر لم نتمالك من اعارة الاتجاه الكلى للأوضاع التى يتألم منها عالمنا كالشرق الأوسط والفلبين وبنجلاديش .. » (١) .

نموذج مثالى لاستخدام الشعارات دون احترام لمضمونها أو التزام بها ! العبارة التالية فى التصريح التى تستبعد المضمون العملى تفرغ الشعار الوارد فى العبارة السابقة من كل مضمون ! (٢)

أما مؤتمر برمانا – على الرغم انه لم يكن حاضرا فيه أحد أصحاب الاديان الاخرى الآتين من الشرق الأقصى – فقد أعلن فى بيانه – متابعا فى ذلك قرار اللجنة المركزية لمجلس الكنائس العالمى بكنتربرى ١٩٦٩ – ان المسئولية عن مأساة الشرق الأوسط تقع على عاتق العالم كله فى مجموعه (٣) .

وفى حقيقة الأمر ، فان عنصر « الحياة المشتركة » على الصعيد العملى هو الحاسم فى مسار الحوار . ذلك ان التفاهم العقائدى بل الوحدة الدينية نفسها لا تعنى وحدة المواقف العملية . هذه تتحكم فيها المصالح والتقاليد والإرتباطات .

قبل انعقاد مؤتمر القمة الاسلامى الاخير فى لاهور ، كتب فهمى هويدى فى الاهرام بعنوان « حاضرون وغائبون فى ساحة

---

(١) مجلة نور وحياة اللبنانية ، تموز – آب ١٩٧٢ ؛ ص ٢٩ .

(٢) وهكذا تتضح قيمة أغلب القرارات التى أصدرها المجلس لحل مشكلة الشرق الأوسط ! بل وتهدر قرارات الأمم المتحدة المستمرة منذ ربع قرن !

(٣) Al Montada, July-September 1972, p. 11.

المعركة » سواء فى الداخل او الخارج ··· « نظرة سريعة الى الساحة العربية تمنحنا احساسا دافئا بحضور عربى مشرف وعميق الاثر ··· وبعد الحضور العربى لابد ان نسجل الحضور الافريقى ونشهد له ··· بعد ذلك ، هل نختلف فى ان العالم الاسلامى كان غائبا ؟ واذا كانت الدول الاسلامية فى افريقيا قد قطعت علاقاتهـــا باسرائيل ، فمن الثابت ان قرارها هذا صدر باعتبارها أعضـــاء فى منظمة الوحدة الافريقية التى كانت قد اتفقت على هذا الاجراء بصفة سرية فى مايو الماضى · وليس لكونها دولا اسلامية ·وتعنينا هنا بالذات الدول الاسلامية فى آسيا الأعضاء فى المؤتمر الاسلامى والتى تتصدر قوائم الحاضرين فى كل مناسبة ولقاء دينى ·واذا كانت احدى هذه الدول قد زادت من انتاج بترولها المصـــدر للولايات المتحدة بينما الأمة العربية تخفضه وتسترد حقوقها ، واذا كانت دولة اسلامية ثالثة قد سمحت باستخدام القواعد الامريكية فيها لتكون نقطة انطلاق طائرات الاستطلاع التى اخترقت المجـال الجوى المصرى أكثر من مرة · اذا كان هذا هو موقف أكبر ثلاث دول اسلامية فى آسيا ، فان الحديث عن الحضـــور بالنسبة لها يصبح غير ذى معنى حتى ولو نادت بأعلى صوتها انها تؤيـــد الحقوق العربية وتدعو الى الانسحاب وتنفيذ قرار ٢٤٢ ·· أما الدول غير المنحازة ·· فان الانطباع العام – وربما السريع – يضم هذه المجموعة الى صفوف الغائبين ·· » (١)

واضح ان افتقار العالم الاسلامى الى الحياة المشتركة ، يجعل مواقفه حتى من نحو قضية تمس القدس والمسجد الاقصى والشعب الفلسطينى متباينة متعارضة – رغم الوحدة الدينية ·

---

(١) ٢١ نوفمبر ١٩٧٣ · وانظر أيضا مقالة « صداقة الكلمات لم تعد تكفى » الاهرام ٥ ديسمبر ١٩٧٣ ومقـــال « الممكن والصعب فى مهمة مؤتمر لاهور » الأهرام ٢٢ فبراير ١٩٧٤ · وانظر « ولنا كلمة » الاهرام ٢٥ يوليو ١٩٧٥ ·

على انه فى الحوار تكون النظرة دائما مستقبلية . تجهد لاكتشاف الامكانيات المتاحة .

ومن هنا فان مقررات مؤتمر القمة الاسلامى فى لاهور كانت متقدمة على كل ما سبقها . وشكرا لملحمة العبور العظيمة .

وفى هذا المؤتمر ظهرت الشعوب العربية التى مارست خبرة المجتمع التعددى فى صورة انسانية لن ينساها التاريخ (١) .

فقد هرع البطريرك الياس الرابع على رأس وفد من المسيحيين الى المؤتمر والقى كلمة قال فيها :

« لقد جئناكم من كنائس المشرق بعد أن جمعنا الود اليكم جيلا بعد جيل وتبلورت بلطف الله وفضله فى ديارنا انسانية واحدة .. وانه لمن دواعى غبطتنا ان نخاطب المسيحيين فى قلب هذا المؤتمر الاسلامى الكبير ، وأن نخاطب مسلمى الأرض فى آن واحد لنقول لهم : ان القدس اعتزازهم وفخرهم » .

وقال غبطته :

« ان شعب فلسطين لا يزال حيا مكافحا بغية الرجوع . وان كان من حق فى العودة فهو له . لأنه بذلك يكون قد استقر فى بيته . وأن العرب لمؤتمنون على حضارة كبرى ورسالة ناطقة خيرا للناس » (٢)

---

(١) قارن ماجاء فى كلمة العقيد معمر القذافى فى المؤتمر : « يطيب لى فى البداية أن أحيى الشعب الباكستانى الشقيق الصامد دفاعا عن الاسلام فى هذه البقاع .. الذى أعتبره وتعتبره بلادى فى معركة تاريخية مستمرة حتى قبل أن تتحدد حدود باكستان الرئيسية عام ١٩٤٧ لأن تحديد تلك الحدود كانت نتيجة للجهاد فى سبيل اخراج عشرات الملايين من المسلمين من أن يكونوا تابعين للوثنيين أو أن يتحولوا الى أقلية مسلمة ـ مضطهدة » .. الفجر الجديد ٢٣ فبراير ١٩٧٤ .

(٢) الأنوار ، ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٧٤ .

وجاء فى بيان المؤتمر انه « ينوه بالجهود البناءة التىيبذلها (المسيحيون) فى مصر ولبنان وسائر البلاد العربية لدى الرأى العام العالمى لشرح قضية فلسطين ونصرتها » (١) ٠

وفى لقاء حضره الرئيس أنور السادات بالوفد المسيحى حرص الوفد على تأكيد فخرهم بحرب رمضان وتأكيد التضامن الاسلامى المسيحى ٠ وفى هذه المناسبة أشاد الرئيس بموقف أقباط مصر كما أسهب فى شرح ما حدث فى معارك أكتوبر (٢) ٠

وكان البابا شنودة والمجلس الملى قد أرسلا الى رئيس المؤتمر الاسلامى بلاهور يؤيدون الحقوق العربية ويتمنون للمؤتمر التوفيق (٣) ٠

وكتب الدكتور عبد العزيز كامل بمناسبة ذكرى الاسراء والمعراج ، فتحدث عن المؤتمر الاسلامى وقال :

« وارتبط هذا النشاط بدعم العمل العربى يشترك فيه أبناء الامة العربية من مسلمين ومسيحيين : ففى مؤتمر القمة الاسلامى الثانى بلاهور جاءت البرقيات مؤيدة عروبة القدس من الكنيسة القبطية بمصر واستعدادها لارسال وفد الى المؤتمر ٠٠٠ وارتفع صوت الكنيسة فى قاعة المؤتمر مؤيدا عروبة القدس مشيدا بالاخاء الاصيل بين أبناء الأمة العربية ٠ واتخذ المؤتمر قرارا يسجل فيه تقديره للدور الايجابى الذى تقوم به كنائس دول المواجهة فى مصر والاردن وسوريا ولبنان على الصعيد المحلى والعالمى ، وما قامت به بعض الكنائس العالمية من تأييد للحق العربى ٠ وجاء

---

(١) الأهرام فى ٢٥ فبراير ١٩٧٤ ٠
(٢) الأهرام فى ٢٤ فبراير ١٩٧٤ ٠
(٣) وطنى ٢٤ فبراير ١٩٧٤ ٠

هذا متابعة عالمية لجهود محلية كريمة رأيناها فى مصر عندما ساهم المسيحيون مع المسلمين فى الاحتجاج على حريق المسجد الاقصى . وشهدت قاعة الشيخ محمد عبده بالازهر الشريف نموذجا من هذه اللقاءات » (١) .

هكذا يؤثر عنصر « الحياة المشتركة » تأثيرا حاسما فى العلاقات بين أصحاب الاديان المختلفة .

...

(١) الأهرام ١٧ يوليو ١٩٧٤ .

الفصل الثالث

الحوار من خلال حياة مشتركة

اولا ـ من عناصر الحياة المشتركة فى مصر :

(ا) موقف الاسلام من المسيحية •

(ب) طبيعة مصر ـ أرضا وشعبا •

(جـ) اللغة الموحدة •

(د) خبرة العقل والحياة فى مصر :

١ ـ قبل المسيحية

٢ ـ مع المسيحية

٣ ـ مع الاسلام

ثانيا ـ مصر الحديثة

ثالثا ـ الخبرة المصرية فى مؤتمر قرطبة

نعنى به الحوار الاسلامى المسيحى الذى جرى ويجرى على الارض العربية عموما ـ وفى مصر خاصة ٠

هذا الحوار يضم فى وحدة جدلية نوعى الحوار السابقين مضيفا اليهما ما ينفى سلبيات كل نوع :

أ ـ هنا نجد مواصلة للحوار المجرد ٠

فكل طرف يجهد بقدر الامكان فى أن يتعمق عقيدته آخذا فى الاعتبار وجهة نظر الآخر ٠ ثم تأتى الاضافة ـ التعمق هنا دائما مصحوب باستخلاص النتائج العملية ٠ فالحياة فى المجتمع غير بعيدة عن الفكر الدينى ٠ والتأثير متبادل ٠ وحين يأخذ الحوار مداه سيكون لهذا الجانب العملى أعظم التأثير على الفكر الدينى ٠

ب ـ وعلى خلاف ما رأيناه فى الحوار الموجه ـ فالهدف العملى لا يأتى من خارج العقيدة ، بل هو ثمرة للمبادىء الانسانية

النبيلة التي تدعو اليها الأديان ، فليس ثمة قوة مغرضة تفرض انحيازها على الحوار كما رأينا موقف مؤتمر كيوتو بالنسبة للاجئين الفلسطينيين . وليس من ابتزاز يفرض تغييرا فى عقيدة طرف ويلوى ذراعه لاتخاذ موقف كما وجدنا فى الحوار اليهودى المسيحى .

والهدف أيضا لا يقحم على الحوار من الخارج - لا يحدده الخبراء ويفرضونه على الفكر الدينى فرضا . بل هو أيضا ثمرة للحياة المشتركة العملية ، انتهى اليه الطرفان معا من خلال تحليل الواقع ، والحوار معه ، والصراع المشترك مع تحدياته .

ولعل النصوص الثلاثة الآتية تقدم فى ايجاز وتركيز هذه الملحمة الطويلة التى عاشتها مصر وكنيستها :

★ ففى نص من القرن الثانى للميلاد منسوب الى عميدمدرسة الاسكندرية المسيحية ، وضع الكاتب المعلم المنهج الذى لن تحيد عنه الكنيسة المصرية قط :

« المسيحيون ليس لهم بلد خاص بهم أو لغة أو ملابس تميزهم عن سائر الناس ، فهم لا يسكنون مدنا قاصرة عليهم .. ولا يتكلمون لغة مخالفة لغيرهم ، ولا يتبعون أسلوب حياة غير مألوف .. يعيشون وسط جميع الشعوب .. وبينما هم يمارسون العادات المحلية فى ملابسهم وطعامهم وطريقة معيشتهم - يظهرون الطابع المميز لحياتهم .. يؤدون واجباتهم كمواطنين .. يطيعون القوانين الوضعية ، ولكنهم فى سلوكهم يسمون على القوانين .. » (١)

---

(١) A Diognète, Sources Chrétiennes, Paris, 1951, pp. 63, 119 et 5.

The Epistle of Mathetes to Diognetes dans the Ante-Nicene Fathers, Vol. 1, Michigan, 1956, p. 26.

★ وفى أواخر القرن الثامن عشر وفد الى مصر علماء الحملة الفرنسية ودرسوا البلاد من مختلف النواحي ، وأثبتوا نتائج أبحاثهم في كتابهم المتعدد الاجزاء « وصف مصر » وسجلوا خبرة التاريخ المصرى كله والانجاز الحضارى النادر للشعب العظيم . وكتبوا عن القبط فى الجزء الثامن عشر من هذا الكتاب :

« يكون القبط جزءا من كيان الأمة فى بلد مقهور .. ان جماعتهم الصغيرة - بفضل بعض النظم المستمدة من الاخلاق الانجيلية ، تعطى مصر صورة الوحدة والتناسق - وهى صورة نادرة تماما فى هذه الأماكن التى خربها الطغيان والاستبداد » (١) .

★ وبعد ذلك بقرن من الزمان يسجل المعتمد البريطاني اللورد كرومر فشل السياسة الانجليزية التقليدية فى مصر ، على الرغم من خبرته وهو سير ايفلين بارنج التى مارسها - بنجاح - فى الهند ، ففى الفصل الأخير من كتابه « مصر الحديثة » تحدث عن رأيه فى مستقبل مصر ، وحاول أن يصورها تجمعا من طوائف منفصلة لا تكون أمة ، ولا يضم سكانها رباط وطنى يجمعهم . وعلى الرغم من هذا التصور فانه اضطر حين تحدث عن الأقباط أن يبرز الوحدة الصلبة التى تضمهم مع مواطنيهم . لقد سجل ان الاقباط كانوا يواجهون الانجليز بمشاعر خالية من الصداقة . وانه لم يجد أى فارق بين سلوك الاقباط والمسلمين فى الأمور العامة . ويقول ان الفارق الوحيد بين القبطى والمسلم هو ان الاول يصلى فى كنيسة والثانى يصلى فى مسجد (٢) .

---

(١) Description de l'Egypt.e 2 éd. txvIII. Etat Moderne, Paris, 1826, p. 16.

وانظر ترجمة لهذا النص فى مجلة الثقافة ، زهير الشايب ، مارس ١٩٧٥ .

(٢) The Earl of Cromer, Modern Egypt, London 1908, t. II, pp. 205-213.

التفاعل واضح فى هذا الوصف للحياة المصرية بين « الكلمة» و « الفعل » - بين « الفكر » و « الواقع » • والحوار بين الدينين ومع الواقع يمضى من خلال الحياة العلمية المشتركة وتساهم فيه الجماهير كلها - يوميا •

ولهذا رأينا كرومر يعترف بأنه لم يجد أى فارق بين سلوك الأقباط والمسلمين فى الأمور العامة •

أولا : من عناصر الحياة المشتركة فى مصر

وفى حقيقة الأمر فان تعمق الخبرة المصرية يقدم للحوار بين الأديان نموذجا عظيم القيمة ، من خلاله يمكن التعرف على المنهج السليم للحوار • ونستطيع أن نبرز عدة عوامل تقوم عليها التجربة المصرية :

(أ) موقف الاسلام من المسيحية •

(ب) طبيعة مصر : أرضا وشعبا •

(جـ) اللغة الموحدة •

(د) خبرة العقل المصرى منذ أقدم العصور •

(هـ) الحياة الشعبية اليومية المشتركة •

ومن خلال تفاعل هذه العوامل قرونا عديدة ، تبدت مصر الحديثة الى العالم - نموذجا تقوم الحياة فيه على مبادىء ساهم الجميع فى صياغتها والرضا بها · كان الحوار يمضى من خلال نبض الحياة نفسها - حوارا مع الفكر ، ومع الواقع · فكان الوطن المصرى، والمواطنة المصرية ، والوحدة الوطنية ·

(أ) موقف الاسلام من المسيحية :

ولقد أشرنا من قبل الى العنصر النظرى المتميز فى الحوار الاسلامى المسيحى وهو اعتراف الاسلام بالمسيحية ·

فطبقا لما يقوله د · عبد العزيز كامل :

« قد علمنا نبينا فيما أنزل عليه من قرآن « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله · لا نفرق بين أحد من رسله · وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (البقرة ٢٨٥) ويعتبرهم القرآن الكريم أمة واحدة تمتد عبر الحياة ، فيقص قصصهم فى سورة الأنبياء ويعرض جهادهم ، يعقب ربنا على ذلك بقوله : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » (الأنبياء ٩٢) ·

« ويمدحهم فى حديثه ويضرب الأمثال لاخائهم فيقول « أنا أولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة · ليس بينى وبينه نبى · والأنبياء اخوة ابناء علات ·· أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (أخرجه الشيخان وأبو داود · وأبناء علات هم الاخوة لأب واحد وأمهات شتى) ·

··· « ولا يقف الأمر عند مجرد عرفان الجميل ، أو تمجيد الماضى بصورة تحجب المراجعة ، وانما لنا فى الماضى دائما

عبرة وتجربة • والله يقول « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب • ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف ١١١) (١) •

هنا نجد نفيا نظريا لمبدأ « الاستبعاد » الذى وجدناه أحد أسس النظرة الغربية للمذاهب والأديان غير الغربية •

(ب) الأرض والشعب :

صلة الشعب بالأرض فى مصر سابقة على المسيحية والاسلام ، وبالتالى فان الانتماء لدين معين لا يمكن أن يكون سند الانتماء الى هذه الأرض ؛ فاذا كانت « مصر هبة النيل » كما جرى القول منذ هيرودوت – فان منح النيل وعطاياه ما كان يمكن لها أن تكون ذات فائدة بدون جهد شعب مصر منذ أقدم العصور • وهل كان من الممكن تحويل مجرى النيل وتنظيم الرى والصرف بدون هذا الجهد الموحد (٢) •• ؟ وصاغ الوجدان المصرى القديم وحدة شعب مصر وانتماءه الى النيل والأرض الموحدة فى أسطورة ايزيس وأزوريس ؛ فقد فرق العدو أشلاء أزوريس أربعة عشر قطعة جمعتها ايزيس من جديد تعبيرا خالدا عن وحدة الأرض ووحدة الشعب (٣) •

ثم جاءت المسيحية – وعبر الاقباط المسيحيون عن ارتباطهم بالأرض فى صلواتهم وخصصوا لكل فصل من فصول السنة

---

(١) الرسول وبناء المستقبل ؛ الأهرام ٥ أبريل ١٩٧٤ •

(٢) جون ولسون : الحضارة المصرية ، ترجمة أحمد فخرى ، مكتبة النهضة ، ص ٣٥ وما بعدها •

(٣) اسماعيل صبرى عبدالله ، نظرة مصرية على تاريخنا الحضارى ، الطليعة يونيو ١٩٧١ ص ٧٤ •

الزراعية ـ الفيضان والزرع والحصاد ـ صلوات خاصة تتلى فى مواقيتها . وتملأ الكنيسة المصرية هذه الصلوات بالأوصاف الخلابة. فالأرض عروس تشتاق الى عريسها – النيل السعيد – تستعد له كى يأتى ويلبسها تاجا جميلا أخضر تسعد به أول السنة حتى يتحول ثمرا وليدا مباركا (١) . والنيل فى الصلوات الكنيسة هو أحد الأنهار الأربعة التى جاء فى سفر التكوين انها موجودة فى الجنة، وتصلى الكنيسة على مياهه عدة مرات فى السنة (٢) .

وحين جاء الاسلام امتلأت الكتب المصرية الاسلامية بالاعتزاز بهذا البلد ـ بالنيل والأرض والشعب . فالنيل نهر تأتى مادته من الجنة . تنحدر فيه البركة وتمزجه الرحمة « ولولا دخوله في البحر المالح وما يختلط به منه لم يستطع أحد شربه لشدة حلاوته » (٣) ومؤرخ آخر حين يورد ما اختصت به مصر والقاهرة من محاسن وفضائل يذكر أن من بينها « قبط مصر . وهم من ذرية الأنبياء » (٤) .

أما المقريزى فيورد عن عبد الله ابن عمرو : قبطة مصر أكرم (الساكنين خارج الجزيرة العربية كلهم) ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم

---

(١) انظر اشارة الى ذلك د. نعمان أحمد فؤاد ، النيل فى الأدب المصرى ؛ دار المعارف ؛ القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٥ ومابعدها .

(٢) صلاة اللقان ـ انظر الكتاب الطقسى الخاص بها .

(٣) كتاب لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، تأليف العبد الفقير الى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد المغنى بن على الاسحاقى المنوفى ، ص ٢٦٣ .

(٤) محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى . الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة ؛ أوردها محمد أنيس ، مؤرخ مجهول سبق الجبرتى ، الهلال أول يوليه سنة ١٩٦٤ ، ص ٤٣ .

عنصرا • ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها فى الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها (١) •

وفى حقيقة الأمر فان المطالع لكتب التاريخ بعد الفتح الاسلامى يجــدها تبدأ بفصــل فى ذكر فضــائل مصر ومحاسنها ونواحى العظمة فيها •

الانتماء الى أرض مصر اذن يتجاوز الانتماء الى دين من الاديان ــ بدليل انه يأخذ التعبير عنه من كل دين يأتى هذه الأرض • مصر هى الكل الذى ليس هو هذا ولا ذاك ولكنه فى نفس الوقت هــذا وذاك • عاشت ــ وما زالت تعيش ــ مع الفرعونية والمســيحية والاسلام ــ حققت ذاتها ووحدتها عبر هذه جميعا فى ظل العصور المتلاحقة • وما زال التقويم الذى يستخدمه الفلاح المصرى لحساب مواسم الزراعة هو نفس التقويم المصرى القديم وبنفس أســماء شهوره •

الانتماء الى الشعب المصرى ــ كالانتماء الى أرض مصر ــ لم يكن على أساس دينى • وحين وفدت الى مصر الهجرات العــربية المتلاحقة ، لم تنعزل عن كتلة الشــعب الأصــلى بل اندمجت فيه اندماجا تاما ، وكان عامل الذوبان هنا هو العمل فى الأرض (٢) •

والتقويم الزراعى المصرى هو نفسه التقــويم الذى تستخدمه الكنيسة القبطية لتنظيم طقوسها على مدار السنة •

---

(١) خطط المقريزى طبعة كتاب التحرير ؛ ص ٤٥ •

وانظر أيضا مصر فى القرآن والسنة تاليف أحمد عبدالحميد يوسف ، سلسلة اقرأ رقم ٣٧٣ •

(٢) محمد العزب موسى ، وحدة تاريخ مصر ، المؤسسة المصرية للدراسات والنشر ؛ بيروت ؛ ١٩٧٢ ؛ ص ١٨٣ وما بعدها •

هذا من ناحية ـ ومن ناحية أخرى فان الدارس لتاريخ الشعب المصرى وواقعه يجد ان ثمة انقسامات في الشعب أعمق من فوارق الدين · ففي عصور الاستعمار والحكم الأجنبى كانت الفروق بين طبعه الحكام والمحكومين ـ فروقاعنصريةوطبقيه وبين من يملك ومن لا يملك · بل ان جماهير العرب الوافدين الى مصر تحولوا الى جزء من الشعب المقهور وعزلوا من مناصب الدولة ، الأمر الذى أدى الى اندماجهم فى الشعب العامل فى الارض وفى الحرف · وتأكد هذا الموقف فيما بعد أيام المماليك والعثمانيين · وهكذا فان الشـــعور بالقهر الوطنى والاجتماعى كان يعلو فوق الشعور بالفارق الدينى · هذا الشعور تجـاه الحاكم الأجنبى والمسـتغل كان يقرب القبطى والمسلم المقهورين أكثر بما يقرب الدين بين الحاكم والمحكوم أو بين من يملك أو من لا يملك · ومع الخبرة الطويلة تعلم الشعب ان التناقض الدينى حين يصبح حادا فان هذا يكون مظهرا لداء خطير ، ومحاوله لاخفاء هذا الداء من جانب الحاكم أو من جانب دخيل فى محاولة لامتصاص غضب الجماهير عليه ولشغلها بما لا يمثل القضية الأساسية للنضال ·

وفى حقيقة الأمر فان لطبيعة الأرض والشعب المصريين أثرا حاسما فى مسار الحوار المصرى · ويكفى لبيان الخلاف بينه وبين الحوار الاسلامى المسيحى الغربى ان نورد هنا التصور الغربى لاطار هذا الحوار · يقول د · لوكاس فيشر بمناسبة مؤتمر برمانا : « ان وجهة نظر كل منا عن دين الآخر غالبا ما تنتمى الى عصر مضى أكثر مما تعبر عن حقيقة معاصرة · ولكن علينا أن نكتشف «الآخر» كما هو الآن ، وعلينا أن نعرف المشاكل التى تشغله · لقد تغير المسلمون والمسيحيون الى حد بعيد · ولكن معرفتنا ببعضنا البعض لم تساير هذا التغير · علينا اذن أن نخترق حاجز الأهواء التى

تفصل فيما بيننا ، وأن نكتشف القضايا الحقيقية التى نواجهها ... » .

ويضيف : « غالبا ما يجهل المسيحيون والمسلمون بعضهم بعضا لأنهم يعيشون – جغرافيا – منفصلين . ومن هنا فثمة جهد خاص مطلوب لعمل اتصال فيما بينهم . ولكن الحوار لازم حتى فى تلك الأماكن التى يعيشون فيها متجاورين ، لأنه غالبا ما يقنع المسلمون والمسيحيون بتعايش بسيط يجعل من الصعب عليهم رؤية الابعاد الروحية الحقيقية لعلاقتهم » .

ويختم حديثه موضحا أهمية اللقاءات التى تجرى على مستوى عالمى ، « انه برؤية المواقف فى مجموعها يمكن فهم مظاهرها الجزئية، والتعامل مع المشاكل العملية التى تظهر .. » (١) .

هذا الحديث يجسم الفوارق بين نوعى الحوار الاسلامى والمسيحى : الغربى والمصرى .

(أ) الحياة المشتركة تستبعد سوء الفهم ، وتجعل كل طرف معاصرا للتغير الذى يحدث فى فكر الآخر ، بل يساهم فى صنعه ، فمعرفة الآخر تساير بالفعل التغير الحادث ، لأن هذا التغير يصنعه الاثنان معا ويفهمان أبعاده ، من خلال مواجهة مستمرة للقضايا الحقيقية التى تواجه المجتمع .

(ب) يتأكد الفارق بين النظرتين حين يتحدث د . فيشر عن الفواصل الجغرافية بين المسلمين والمسيحيين ، وكيف ان مؤتمرات الحوار تقيم صلة بينهم لا تتوافر فى واقع الحياة العملية . ان ما ذكرناه فى الفصل السابق عن الحياة المشتركة على أرض مصر يجعل هذا الكلام غير منطبق فى هذه البلاد .

---

(١) Al Montada, July-September 1972, p. 23.

(ج) ان ما يدعو اليه د · فيشر عن رؤية الظواهر الجزئية من خلال اللقاءات العالمية ليس فى صالح الحوار المصرى · على العكس من ذلك ، من اللازم أن يكون النموذج المصرى محل دراسة خاصة فى لقاءات الحوار العالمية كنموذج ناجح وملهم ·

وفى الواقع كان لطبيعة مصر - الأرض والشعب الأثر الحاسم فى مسار التجربة المصرية التى تمتد الى التاريخ البعيد · ان النيل والزراعة ، والجوار الحميم ، والالتصاق بالأرض ··· ثم قدرة الشعب المصرى على ادماج الوافدين اراغبين فى المشاركة والاندماج ، هذا كله جعل لعنصر الواقع أثرا كبيرا فى توجيه الفكر · ان الانسان المصرى يستخلص رؤيته للعالم - للطبيعة والانسان - للسياسة والاقتصاد والمجتمع ··· ليس فقط من خلال التأمل العقلى أو الروحى ولكن أيضا من دراسة الواقع · بحيث أن المبادىء والقوانين التى يستخلصها من هذه الدراسة يكون لها احترامها ·

هنا نستطيع أن نقول ان الحوار يمضى بين أطراف ثلاثة : الاسلام والمسيحية وواقع الحياة المصرية · فما يدعو اليه الدينان من تقرير للعقل والعلم مثلا يجد مجال تطبيقه فى واقع الحياة - من خلال التعامل مع الطبيعة وفى العلاقات الاجتماعية · وتصحب التعامل وتؤثر فيه وتتأثر به نظرة مشتركة للواقع يستخلصها المجتمع التعددى فى مجموعه من خلال الحوار فيما بينهما ومع الواقع · فهى نظرة تتجاوز الطبيعة المطلقة لكل دين كى تصل الى رؤية مشتركة يتقبلها المطلقان معا ويرتقيان بها أثناء الحوار مع الواقع ·

(ج) اللغة الموحدة :

مع دخول الاسلام جاءت اللغة العربية وصار فى مصر لسانان

العربى والقبطى ، ولو ان هذا استمر لكان على أرض مصر شعبان ـ لكل منهما ثقافته ووعيه ونظرته للعالم ولمصر ، ولصعب التفاهم بين الشعبين فى هذا التجمع ٠

فماذا كان اختيار المصريين ٠٠ ؟

من بين علماء الكنيسة القبطية عالم اسمه ساويرس ، كان أسقفا لمدينة الأشمونين بمديرية أسيوط ، وعاش النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل القـــرن الحادى عشر واشتهر فى كتب الكنيسة بلقب « ابن المقفع » ـ لأنه قام بنقل التراث القبطى الى العربية كما فعل ابن المقفع الأول الذى نقل التراث الهندى الى العربية ٠ « وكان متضلعا فياضا فى اللغة العربية ملما بعلومها وأسرارها ٠ وكان راسخ القدم فى اللغات اليونانية والقبطية » ٠ ولهذا تعاون مع عديد من المسيحيين على نقل ما وجدناه ـ كما يقول ـ بالقلم القبطى واليونانى الى القلم العربى (١) ٠

هذا مثل مما حدث فى مصر ٠ ومن قبل طوع المصريون لغتهم القديمة باستعمال الحروف اليونانية . وفى هذه الخطوة الجديدة مع العربية حدثت معجزة التفاهم داخل الشعب المصرى ، ان اللغة هى التى تصنع التصور وتكون الوعى وتربط بين البشر وتعبر عن العلاقات فيما بينهم ٠ يقول الدكتور حسين مؤنس «ان قوام الحضارة فى الشرق الأدنى ليسوا هم الغزاة الفاتحين الذين ينشئون الدول ويسـيرون الجيوش ويكثر ظهورهم واختفاؤهم وانما قوامها أهـل المدن الذين يعمرون بلاده وأهل الريف يزرعون مزارعه ٠٠ هؤلاء، الأساس الثابت الذى يختزن الحضـارة ٠٠ وهـو يبدو أول الأمر ضعيفا محكوما ـ ولكنه يبدأ فى الظهور اذا استقرت الأحوال وهدأت

(١) كامل صالح نخله ، كتاب تاريخ وجداول بطاركة الاسكندرية القبط طبعة ١٩٤٣ ؛ ص ٢١ ٠

نيران الحرب فيبدأ يؤثر على الحاكمين أنفسهم ويغمرهم ويطبعهم بطابعه الخاص · وعلى هذا البساط يتقارب الحاكم والمحكوم حتى يمتزجان آخر الأمر امتزاجا قويا ·· » (١) ·

هذا التأثير والتأثر ثم الوحدة – ساعد على ايجادهما وحدة اللسان مع المحافظة على اللغة القبطية فى المجال الدينى · ان ما حدث على أرضنا فى هذه الناحية يكون ركيزة أساسية فى وحدة الشعب المصرى واستمرار حضارته ·

بل ان ما حدث فى مصر فى هذا المجال فتح الطريق أمام شعب مصر كله ليتفاهم بلغة يتحدث بها بشر فى رقعة من الأرض تمتد كما نقول اليوم من المحيط الى الخليج · وبهذه اللغة يدخل الشعب المصرى بكل قوته البشرية والمادية وبكل تراثه الحضارى فى حوار ، وينهض بقيادة معركة التحرر القومى والاجتماعى – مع مجموعة بشرية تبلغ اليوم مائة مليون نسمة يقدم لهم نموذجا رائدا فى الوحدة والتفاهم ·

(د) خبرة العقل والحياة فى مصر :

ان العقل المصرى يتقبل الحوار ويمارسه منذ أقدم العصور ، وتقاليده فىهذا الصدد ترجع الى الماضى البعيد – (أ) قبل المسيحية ، (ب) ومع المسيحية ، (جـ) ومع الاسلام ·

١ – قبل المسيحية

أ – فمع ارتحال الاسكندر الى الشرق ، بدأ الاغريق يتعرفون على فكر هذه البلاد · ووجد الفكر اليونانى شيئا

---

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٨ ؛ ص ٧ ·

كان اليونانيون يتطلعون اليه ولم يكونوا يجدونه فى دينهم المرتبط بالمدينة - أى تصور المطلق غير محصور فى حدود المدينة ، مرتبطا بها ، واختبار الدين خبرة شخصية تمنح السلام والرضا . كانت الاسكندرية هى المدينة التى جرى فى مؤسساتها الثقافية الحوار بين الشرق والغرب فى العالم القديم قبل مجىء المسيحية فقد كان مركزها الجغرافى وميناؤها يجعلانها ملتقى عالميا للحضارات والأديان والمدارس الفكرية فضلا عن التجارة (١) .

ب - اليهودية الاسكندرانية :

وفى الاسكندرية أيضا ظهرت الصيغة الاسكندرانية الانسانية للدين اليهودى . ففى فلسطين كان الفكر الدينى اليهودى متطلعا الى اقامة مملكة زمنية يسود عليها ملك من نسل داود . ومن هنا كانت المقاومة الشديدة التى واجه بها اليهود السيد المسيح حين أعلن أن مملكته ليست ذات طابع سياسى بل « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » وتوضح الأناجيل محاولات اليهود لتنصيبه ملكا أرضيا ، وحماسهم الشديد فى هذا الصدد . ثم تظهر خيبة أملهم الشديدة ومرارتهم حين أصر على الرفض فلم يتركوه الا محكوما عليه ومصلوبا (٢) .

---

(١) نجيب بلدى ؛ تمهيد لتاريخ مدرسة الاسكندرية وفلسفتها القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٥٧ ، ٦٠ .

يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، الطبعة الخامسة ؛ القاهرة ١٩٦٦ ؛ ص٢٤٢.

(٢) Bible de Jérusalem, L'Evangile selon St. Matthieu, Paris, 1950, Introduction, p. 13 et s.

Oscar Cullmann, Christologie du Nouveau Testament, Neuchatel — Paris, 1958, p. 97 et s.

أما فى الاسكندرية فان الفكر اليهودى يتخلى تماما عن هذا الطابع السياسى القومى . ويبرز اسم « فيلون » الاسكندرى (٣٠ ق م - ٥٠ ب م) « أكبر ممثل للفكر اليهودى المثقف باليونانية فى ذلك العصر » (١) ولقد كان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق فى دولة البطالمة (٢).

واذا كان تاريخ اليهود الحديث سجل ماصنعه موسيس مندلسون فى حركة الاستنارة اليهودية الذى جهد حياته لترجمة الأسفار الأولى من العهد القديم الى الألمانية (٣) ففى مدينة الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد تم عمل أعظم كانت له - وما تزال - أبعد الآثار . نعنى بذلك ترجمة العهد القديم كله الى اليونانية .ففى هذه البيئة المتحررة وفى هذا المناخ الثقافى الممتاز شعر رؤساء اليهود بالحاجة الى ترجمة يونانية لكتابهم المقدس . وفهم الحكام البطالسة أهمية هذه الترجمة من ناحية انتشار الثقافة اليونانية التى وقفوا على صيانتها ونشرها فعمل هؤلاء وأولئك على احضار أكبر الأحبار اليهود الى الاسكندرية وعلى أن يحضروا معهم أسفار التوراة من فلسطين. وباشر هؤلاء الأحبار عملهم بالاسكندرية حتى انتهائه. فتمت على يدهم وكان عددهم اثنين وسبعين حبرا - الترجمة السبعينية - نسبة الى عدد المترجمين - للتوراة العبرية (٤) .

وهكذا كان يحدث تبادل التأثير والتأثر فى المجتمع السكندرى - فاذا كان الدين القبلى أو دين المدينة اليونانى يتطور ليأخذ من أديان

---

(١) يوسف كرم ؛ المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢) ابراهيم نصحى ، تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ؛ العصر اليونانى والرومانى ؛ القاهرة ؛ ص ٣٥ .

(٣) H.M. Sachar, The Course of Modern Jewish History, New York, 1958, p. 46.

(٤) نجيب بلدى ، المرجع السابق ، ص ٥٠ .

الشرق الطابع الشخصى ، فان اليهودية باتصالها بالفلسفة اليونانية تتفتح لتبرز محتواها الانسانى الشامل .

ويتابع فيلون تقاليد المدرسه اليهودية السكندرية التى كانت تشرح التوراة شرحا رمزيا . ولديها ان التوراة فى جملتهـــا هى تاريخ بنى اسرائيل وما أصابوا من نعم حين كانوا يرعون شريعـــة الله وما عانوا من نقم حين كانوا يعصونها . فقال يهود الاسكندرية ان هذه القصة فى مجموعها تمثل قصة النفس مع الله - تدنوالنفس من الله فتصيب رضاه ، وتبتعد عنه فينزل بها سخطه . وهكذا مضوا فى تأويل أسفار العهد القديم . وتابع فيلون هذا التقليـــد وبرز فيه . واستبعد من اليهودية كل طموح سياسى . وقال ان اليهودى يهودى دينا لا جنسية ، ويجب عليه أن يكون مواطنا فى البلد الذى يقيم فيه . وأعطى العهد القديم تفسيرا انسانيا شاملا غير محصور فى اليهود وحسب . فليس الله عنده هو اله اسرائيل فحسب وانما هو اله العالم أجمع . ونقل الوعود الالهية الواردة فى التوراة متضمنة خيرات دنيوية ومستقبل سعيد لشعب اسرائيل - نقل هذا كله الى وعود بخيرات روحية للنفس الصالحة وبسيادة الشريعـــة على العالم . أما التئام شمل اليهود فى بلد واحد فمعناه لديـــه اجتماع الفضائل فى النفس وتناسقها بعـــد ما تحدثه الرذيلة من تشتت (١) .

فى هذا المناخ قامت كنيسة الاسكندرية . وكانت صلة معلميها الاوائل بالعهد القديم عبر هذا التراث اليهودى الروحى الانســانى الذى ظهر وتأصل فى العاصمة المصرية العالمية وقتئذ . وستظـــل

---

(١) انظر فى هذا كله يوسف كرم ، المرجع السابق : ص ٢٤٧ وما بعدها . نجيب بلدى ، المرجع السابق : ص ٧٩ وما بعدها .
Jean Danilou, Philon d'Alexandrie, Paris, 1958.

الكنيسة المصرية ترفض في اصرار التأويل القومي السياسي الذي ينسب الى العهد القديم ، تحرص على ذلك في طقوسها وتعاليمها ٠

(٢) مع المسيحية

أ ـ تقدير الفلسفة في مدرسة الاسكندرية

ولقد نشأت الكنيسة المصرية في مدينة هي ملتقى الثقافات والتيارات الفكرية في زمانها ٠ وواجهت المسيحية في هذه المدينة منذ يومها الأول تحديا فكريا على أعلى مستوى معاصر ٠ ومن هنا كانت ضرورة انشاء معهد لتعليم الدين الجديد والدفاع عنه ٠ويقول القديس جيروم انه كان منذ البداية في الاسكندرية علماء كنسيون على قدر عال من الحكمة والمقدرة الفائقة سواء في معرفة الكتب المقدسة أو في الآداب الانسانية ٠ وكان في الاسكندرية وقتئذ المؤسسات الثقافية التي أنشأها البطالمة بعلمائها وفلاسفتها ومكتبتها المشهورة ولذلك كان يتعين أن تكون المؤسسة المسيحية على مستوى مماثل ٠

وبالفعل ـ حققت هذه المدرسة مهمتها ٠ وكان يتخرج فيها علماء المسيحية الذين أداروا الحوار بينها وبين التيارات الفكرية المعاصرة٠ وفي هذا المجال يبرز اكليمنضس الاسكندرى وأوريجانوس مثلين للجهد الذى بذلته هذه المدرسة في المجال الفلسفي ؛ فلقد كان اكليمينضس أول مفكر مسيحي أسهب في تحبيذ الفلسفة ، ودافع عنها بكل ما أوتي من قوة وبيان ٠ فيقول : « يرى بعض الناس ممن يظنون بأنفسهم الذكاء ــ الاقتصار على الايمان والانصراف عن الفلسفة والعلوم ٠ هؤلاء مثلهم مثل من يأبى تعهد الكرم ويريد أن يجنى منه عنبا » ٠

وكان ترتليانوس يرى ان المؤمنين المسيحيين قد وجدوا نهائيا موضوع سعيهم ويقول انه بعد أن يؤمن الانسان فليس سوى شيء واحد عليه أن يعتقد به الا وهو أنه لا يوجد ثمة شيء آخر ليؤمن به . أما اكليمنضس الاسكندرى فقد كان يقف فى مواجهة هذا التيار ، ولديه ان الفلسفة كانت ضرورية لليونان كي يمارسوا العدالة وهي الآن مفيدة للتقوى . بل يقول انه من الراجح ان الله نفسه أعطى اليونان الفلسفة التى كانت لهم بمثابة المؤدب مثل ما كانت الشريعة بين اليهود . فكما كانت التوراة هى « العهد » لليهود ، فان الفلسفة هي « العهد » الخاص باليونان ولقد اعتبر معلمو المدرسة انه لا بد من تقدير ايجابى لفلسفة العصر . ووجدوا انها كارثة حقيقية أن يقول رجال الدين بمنتهى البساطة للمثقف الآتي الى المسيحية ان أعظم فلاسفة اليونان وشعراءهم كان الشيطان هو ملهم أفكارهم (١) .

ب - رفض الغنوصية

ولكن المعرفة لم تكن منعزلة عن الممارسة . بل ان هذه هى شرط الأولى ومعيار اختبارها . وذلك على العكس من المذاهب الغنوصية التى كانت ترى أن « المعرفة » فى ذاتها هى الهدف وليس وراءها شيء آخر . ان المثل الأعلى للعارف المسيحى يكمن فى المحبة الكاملة قبل أن يكمن فى المعرفة الكاملة . يصف اكليمنضس هذا العارف بأنه هو الذى كلما شاخ فى الدراسة - أمعن فى الحياة حسب وصايا الانجيل بدقة وسخاء أكثر . وهكذا يقترن العمل بالعلم . ولا تكون العقيدة مضاربة فى الفكر النظرى بل مرتبطة بالانسان

---

(١) يوسف كرم ، المرجع السابق ؛ ص ٢٧٠ وما بعدها .

وبالآثارالتي ينبغي أن تفرزها هذه العقيدة على صعيد المواقف العلمية في الحياة (١) ٠

والى مدرسة الاسكندرية يرجع الفضل فى المركز الممتاز الذى احتله باباوات الكنيسة القبطية فى العالم المسيحى اذ أصبحوا المرجع الأول في مختلف القضايا اللاهوتية التى ثارت فى القرنين الثالث والرابع ٠ ولقد كان واحد من رؤسائها ـ بنتينوس ـ هو الذى ابتكر الأبجدية الجديدة للغة المصرية القديمة باستخدام الحروف اليونانية مضافا اليها بعض حروف أخرى لم يكن مقابلها المصرى موجودا فى هذه الأخيرة ٠ وبهذه الأبجدية الجديدة أمكن نقل حقائق الدين الجديد والمعرفة الى الجماهير المصرية في سهولة ، كما أمكن منذ القرن الأول ترجمة النصوص المسيحية المختلفة الى لغة الشعب كى يقرأها ويستوعبها ٠

ج ـ لاهوت النفى :

أن معرفة الله فى تقليد مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، لاتعتمد على تعريف ماهية الله ـ فهذه يمتنع علينا تعريفها ٠ فكل مايوصف به الله وينسب اليه تستخدم فيه الالفاظ البشرية لأن العقل الانسانى يعجز عن ادراك حقيقة الله ٠

فنحن لا نعرف الله بما هو ـ ولكن بنفى ماليس هو(٢) والمسألة تتمحض فى النهاية لا جهدا عقليا ، ولكن خبرة حية : لقاء على صعيد العمل ٠

هذا هو الفكر الذى يطلق عليه « لاهوت النفى » (٣) ٠

(١) J.N.D. Kelly, Early Christian Doctrines, London, 1968, pp. 9, 26-28.

(٢) Clement of Alexandria, Stromate, V. 2, 12.

(٣) apophatic or negative theology

الانسان هنا من خلال الخبرة العملية ، يتقدم مرحلة بعد أخرى ٠ واذ تتالى فى حياته عمليات النفى واحدة بعد أخرى ، يتقدم الانسان من الدرجات الدنيا الى ما يعلوها ٠٠ متطلعا لان يتحد على صعيد الفعل بذاك المطلق الذى يعلو كل ماهية أو معرفة ٠ فالله لا يعلن ذاته للانسان كموضوع لأن الأمر لا يتعلق بالمعرفة ، بل بالوحدة مع الله من خلال العمل (١) ٠

فكل ما يقال عن الله يكون لدى الانسان أشبه بالمشروع – الى أن يتجسد عملا واقعيا ٠ ان ما نكونه عن الله من أفكار ، يصبح أوثانا تحجبه – لأنه لا يعلن ذاته الا فى الخبرة العملية (٢) ٠

المطلق هنا يصبح هدفا ، وطاقة ، ومعينا ، وحافزا ٠ والعلاقة به تتجاوز الفكر لتصبح طريقا للحياة تتابع فيه عمليات النفى والتقدم ٠

د – مفهوم الانسان

فى مصر القديمة يصل الربط بين النسبى والمطلق الى حد تأليه الحاكم : فرعون ٠ لهذا فان العمل الأول لأى حاكم جديد يفد اليها هو ربط شخصه وأسرته بالالهة الملوك (٣) ٠ وحين دخلت اليها المسيحية كانت ولاية رومانية – وكانت الاغلبية الساحقة من المصريين هم الفلاحون والصناع والحرفيون ، يكدون كى يوفروا للولاية انتاج عملهم ، أما الدولة فكانت بالنسبة لهم عقيدة لأن الدولة هى الاله الملك (٤) ولم يكن انقسام المجتمع عنصريا وطبقيا فحسب

(١) V. Lossky, The Mystical Theology of the Eastern Church, London, 1957, pp. 25, 27, 28.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧ و ٣٣ ٠

(٣) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ٠ ص ٢٨ و ١٣٧ ٠

(٤) Bastouly, Reda Farag, Le régime foncier en Egypte depuis l'époque grecque au Xe siècle de notre ère, thèse, Paris, 1962, dact., p. 57.

بل قدمت ايمانا بإله حي ، وبالانسان محورا للنشاط الديني . وأوزريس ، في مواجهة عبادة سرابيس المرتبطة بالارستقراطية الاسكندارنية التي ابتدعت عبادته لأسباب سياسية . لكن الفلاح المصرى استمسك بدينه الشعبي ، الذى يحضه على التمسك بالأخلاق بالاضافة الى ايمان لا يتزعزع بالخلود والبعث بعد الموت (١) .

وحين جاءت المسيحية لم تقدم مطلقا فلسفيا ، كما هو الشأن في الفلسفة والدين اليونانيين (٢) وكذلك في اليهودية الاسكندرانية بل كان دينيا أيضا . كانت هناك الديانة الشعبية ـ عبادة ايزيس والعقيدة لا تقاس بما فيها من منطق وقياس بل بما لها من قدرة وفاعلية في التغيير . يقول القديس يعقوب الرسول في العهد الجديد :

« الايمان ان لم يكن له أعمال ميت في ذاته .. ارني ايمانك بدون أعمالك ، وأنا أريك بأعمالي ايماني ... لأنه كما ان الجسد بدون روح ميت ، هكذا الايمان بدون أعمال ميت » (٢ : ١٧ و ١٨ و ٢٦) .

أما بالنسبة للفكر المصرى القديم فان تأثير المسيحية عليه كان مزدوجا ؛ فمن ناحية وجد المصرى تقاربا كبيرا بين دين يقوم على الاخلاق وعلى فكرة واضحة عن الحياة بعد الموت وبين أفكاره الدينية القديمة . بحيث ان « مصر كانت واحدا من البلاد التى كان اقتبال المسيحية فيها عاما وبحماس » (٣) هكذا اعتنقت الفئات الدنيا

---

(١) Worrell, William, A Short Account of the Copts.

موجز من تاريخ القبط ، ترجمة ؛ في صفحة من تاريخ القبط ؛ الاسكندرية ١٩٥٤ ، ص ١٣١ .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ؛ القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥٧ .

(٣) Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et Litourgie, Paris, 1940, cité par Sylvestre Chauleur, Histoire des Coptes, Paris, 1960, p. 29.

من المجتمع المسيحية بينما كان الوثنيون فى الاسكندرية غارقين فى المناقشـــات الفلسفية التى انتشرت بين الملاك الاغريق الأغنياء . وهؤلاء كانوا يضايقون فلاحيهم المسيحيين ويضطهدونهم (١) .

ومن ناحية أخرى فانه بالنسبة لتصور الانسان المصرى عن الحاكم قدمت المسيحية فكرة جديدة تماما ومناقضة للتقليد المصرى العتيق بشأن علاقة الحاكم بالمحكوم . الانسان نفسه ـ أى انسان ـ طبقا للتصور الجديد هو صورة الله ومثاله (سفر التكوين الاصحاح الاول والثانى) بل ان الله فى الفكر المسيحى بلغ تقديره للانسـان ان صار مثله ـ نزل الى الارض وعاش فى صورة بشرية ، كى يمنح الانسان جذوة الالوهية تســتقر فى أعمـــاقه وتتمثل فى أعماله الاجتماعية . وستكون احدى مقاطع الانشودة التى صاغها اثناسيوس البابا المصرى فى القرن الرابع ليترنم بها فى كل أسبوع وحتى اليوم جماهير المسيحيين القبط : « أخذ (الله) مالنا (أى الجسد) وأعطانا الذى له (الالوهية) » (٢) .

الوهة الانسان هنا ممنوحة بتفضل من الاله ، ويظل الفـــارق قائما بين الانسان بالتفضل والمنحة ، وبين الله الاله بالطبيعة والجوهر لقد صار المصرى العادى أسمى من حاكمه القديم .

ولهذا ، فان « الفلاح المصرى وجد فى المسيحية تعبيرا عن كرامته ووعيا بها كان منذ زمن بعيد قد فقده » (٣) ومن ثم التزامه ومسئوليته . ويكفى للتعرف على مدى عمق التغيير الذى حدث فى

---

(١) A.J. Butler, Copts, dans Encyc. Brit., 11th ed., Vol. 7, p. 113.
Scott-Moncriff, Coptic Church, dans Enc. of Religion and Ethics, New York, 1912, Vol. IV, p. 113.
H.I. Bell, The Legacy of Egypt, Oxford, 1942, pp. 340-342.

(٢) De Incarnatione Verbi Dei, No. 54, Nicene Fathers, Vo.l IV, p. 65 and ref.
تجسد الكلمة ، ترجمة حافظ داود ، رقم ٧٤ .

(٣) بل ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

الوجدان المصرى الذى اعتاد على عباده فراعنته،ان لحظة الاستشهاد كانت تاتى حين يخير المؤمن بين عبادة الحاكم او الموت • ولقد كانت هذه الخطوة ـ الفصل بين الحاكم والألوهة ، نقطة بداية فى تكوين فكر انسانى تقوم عليه الحياة فى المجتمع • لم يعد الحاكم هـــو الاله ، المحكومون جميعا مثله • ولم يفلت هذا الخيط قط من يد الانسان المصرى • وستتراكم حول هذه الفكرة خبرات الحيـــاة على هذه الارض • صحيح ان الخبرة كانت تستخلص ببطء وعبر عشرات بل مئات السنين من المعاناة حتى ليخيل للنظر القصير ان ثمة انفصالا بين المراحل • الا أن النظرة التى تحيط بالتاريخ المصرى كله ـ تحليل الاحقاب لا اللحظات وحسب (١) سيجد الرابطـــة بين البداية ومراحل التطور واضحة •

ولأن المصرى رفض ان تحتوى الدولة او الحاكم ـ الدين ، فيصبح النسبى هو المطلق ـ لهذا كان يتعرض لمصير بشع حين يمتنع عن تقديم البخور امام تمثال الامبراطور • ومع ذلك تزايد عـــدد المسيحيين • وتعاقب الاباطرة كل يسوم المسيحيين بقدر ماتستطيع قدرته •

على أن ألاسم الذى أصبح محفورا فى ذاكرة الاقباط رمزا للاضطهاد على مدى التاريخ هوالامبراطور ديوكلسيان أودقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) • لم يكن يطيق ـ وهو الذى يريد أن يجعـــل لنفسه تسلطا مطلقا وهيمنة كاملة على كل نشاط الدولة والمجتمع ـ وجود جماعة شعبية منظمة وحرة داخل مملكته • ولذلك فان هدفه لم يكن قتل المسيحيين وحسب بل محو المسيحية نهائيـــا• وهكذا أمر بهدم الكنائس واحراق الكتب المقدسة ، فضلا عن فصل كل من يرفض الامتثال لعبادة الالهة من الجيش والحكومة ومنـــع اجتماعات المسيحيين •

---

(١) The macro-analysis and not only the micro-analysis.

وتحدى المسيحيون هذه السلطة المطلقة · فبدأت صنوف التعذيب تمارس ضدهم · فماذا كان موقف المسيحيين من المجتمع والدولة وقتئذ ؟

لم يقعوا قط فى خطأ مضهديهم ؛ فاذا كان شخص معين أو جماعة تناوئهم فان ثمة واجبا والتزاما عليهم - كانت لهم رؤية تجاوز الواقع وتتخطاه · كانوا يسامحون أعداءهم · ولقد كان هذا الموقف يخلب اعجاب الكثيرين فيقبلون الى المسيحية تحت تأثيره · وكانوا يؤدون أعمالهم فى الجيش والادارة بكل درجات وظائفها – طالما كان ذلك متاحا لهم – بكل أمانة · صحيح أنهم رفضوا نهائيا أن يقدموا الولاء والعبادة للملك كاله ، الا أنهم من ناحية أخرى لم يكفوا – فى اطار ايمانهم – عن الصلاة من أجله ومن أجل خيرالدولة وسلام العالم ·

وكما هى العادة دائما – تأتى فى النهاية كلمة التاريخ الحاسمة : فيها الدهاء والسخرية والقصاص · انتصرت الكنيسة، وتخلى ديوكلسيان عن العرش فى أول مايو ٣٠٥ · ثم توفى عام ٣١٣ · ولكن المصريين خلدوا ذكر يوم توليه الامبراطورية ·وجعلوا ذلك اليوم ٢٩ أغسطس ٢٨٤ – يوم توليه العرش لا يوم تخليه عنه – بدءا للتقويم المصرى الذى أصبح منسوبا الى الشهداء ،احتفظ فيه القبط بأسماء الشهور المصرية القديمة ونظموه على نفس الاساس الفلكى الذى عاش عليه الفلاح المصرى ، ونظمت طبقا له مواقيت العمليات الزراعية فى الحقل ، وكما قلنا ، فانه هو نفس التقويم الذى يستخدمه المصريون فى الزراعة الى اليوم · وهو أيضا التقويم الذى تتخذه الكنيسة أساسا لتنظيم سنتها الطقسية ·

هـ - الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية

ولقد وجد المصريون فى كنيستهم شخصيتهم التى طال تجاهلها واهدار كيانها . فبعد سنوات طويلة من الهزيمة والقهر الاجنبى، وجدوا أنفسهم يدخلون معركة صريحة محددة مع عدوهم ، وينتصرون وكان النصر حقيقيا وشاملا . ففي مواجهة السلطة الاجنبية كانت جموع الشعب المصرى - مسلحين بعقيدتهم واصرارهم ، منظمين في مؤسستهم الشعبية التى فى اطارها خاضوا المعركة فى مواجهة مؤسسات السلطة العسكرية والحكومية والدينية التى تدعمها الطبقات المستغلة . وعرفت الجموع زعماءها الحقيقيين من خلال هذه المؤسسة . وكانت مدرسة الاسكندرية تعمق العقيدة فى النفوس وتستخلص منها ما يدعم ايمان الجموع ويهديهم فى مسيرتهم الجديدة .

ثم أتيحت الفرصة للشعب المصرى مرة أخرى كى يقوم بدور عالمى . وابتداء من أوائل القرن الرابع وعلى مدى مائة وخمسين عاما كانت كنيسة مصر ورؤساؤها ومعلموها يواجهون الانحرافات العقائدية المسيحية فى المجامع السكونية التى تنعقد خارج مصر على الصعيد الكنسى العالمى . وما زالت الى اليوم أسماء الاسكندر واثناسيوس وكيرلس هى المراجع الرئيسية لمعرفة الحقيقة فى هذه المجادلات اللاهوتية . وفى هذا النضال العقائدى تبدت الخصيصة الرئيسية لمدرسة الاسكندرية الرئيسية : كانت الكنيسة تعتبر ان الانسان هو الهدف . فعلى العكس من المذاهب الغنوصية - كما أشرنا الى ذلك من قبل كانت الكنيسة المصرية تجعل لعلم اللاهوت معنى عمليا وآثارا على صعيد الواقع . كانت فى سعيها الى النقاء العقائدى تريد أن تضمن للمؤمن أكمل صيغة عقائدية بها أن يمارس التزامه المسيحى .

وبدأت روما وبيزنطة تضيقان بالاسكندرية - عاصمة مقاطعة تابعة للامبراطورية سياسيا ، ولكنها نفرض كلمتها في أخطر مجال شعبي وقتئذ وهو الدين · كانت مصر مستعمرة ولكن كنيستها مستقلة · لابد اذن من توجيه ضربة لهذا الشعب المعتز بنفسه ، العنيدفي نضاله · وفي مجمع خلقدونية عام ٤٥١ كانت المؤامرة ضد ديوسقوروس البطريرك القبطي ·

هنا تبدأ مرحلة جديدة من الصراع - ذلك ان المصريين رفضوا في اصرار عجيب الاعتراف بالبطريرك الدخيل ·

ماذا يعني هذا النضال الذي استمر ثلاثة قرون ؟

كان الهدف هو الفصل بين السلطة الزمنية والسطةالدينية · وهنا لم يكن النضال في مواجهة حاكم وثني بل ازاء الحاكم المسيحي نفسه ·

وكان موقف كنيسة مصر واضحا : عبر عنه من قبل تراث البابا اثناسيوس حين خاطب الامبراطور « لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية ولا تصدر الينا أمرا بشأن هذه المسائل ·· لقد أعطاك الله المملكة وعهد الينا بأمور الكنسية ·· فليس مسموحا لنا بأن نمارس حكما أرضيا وليس لك أن تقوم بعمل كنسي » ·

ولقد بلغ الرباط بين السلطتين الزمنية والدينية في مصر صورته النموذجية · فكثيرا ما كان حاكم الولايه الروماني هو نفسه قائد الحامية العسكرية ورئيس الجماعة الدينية التابعة لبيزنطة ·

وكان الصراع حادا عنيفا ومستمرا ودمويا · وتصور الواقعة التالية الموقف أبلغ تصوير : وصل الى الاسكندرية أحد أشراف روما · أبو ليناريوس كي يسترد البطركية من تيموثاوس الثاني (٤٥٥ - ٤٧٧) خليفة ديوسقوروس · وبناء على أمر الامبراطور طلب أن

تجرى بالنسبة له المراسيم الدينية ليصبح هو البطريرك ٠ولكن أقباط استهزأوا به ٠ فحدد يوما - يجتمع فيه بالشعب فى الكنيسة الكبرى ٠ واحاطت بالكنيسه من جميع الجهات القوات العسكريه ٠ وشاهده الشعب يسير فى شوارع المدينة ويدخل الكنيسة فى زيه العسكرى حاملا شارة طبقته الارستقراطية ٠ ثم صعد الى المنبر وخلع رداء العسكر فاذا هو يرتدى الثياب البطريركية الكهنوتية٠ وبدأ يقرأ قرار المجمع الخلقدونى ٠ ولكن الشعب المجتمع رفع أصواته محتجا ورافضا وأعطى أبوليناريوس الاشارة فادا سيوف الجنود تعمل بهمة فى أجساد المصريين ٠ ويقول المؤرخ أن الموقف أصبح مجزرة ٠

المهم بالنسبة للمصريين أن هذا « الجزار » اختفى من بلادهم هاربا (١) واذا كان هذا الفشل يعنى أشياء كثيرة فى المجال العقائدى أو التنظيمى الكنسى ، فانه أيضا يعنى أن المصريين يواصلون موقفهم الذى بدأوه حين رفضوا مع اعتناق المسيحية تأليه الحاكم ٠ هنا أيضا وفى مواجهة الحاكم المسيحى يصممون على الفصل بين سيف الحاكم المدنى ورداء الرئيس الدينى ٠

و - التراث الديمقراطى والاجتماعى

ولكن قيمة الانسان العظمى التى رأينا المسيحيين المصريين يؤمنون ويترنمون بها ، لم تكن غير ذات تأثير عملى فى حياتهم ٠ لقد رأينا المصريين تحت حكم البيزنطيين محرومين من المشاركة فى حكم بلادهم ٠ أما داخل الكنيسة فقد كانت ثمة ممارسة ديمقراطية اذ أصبحت الكنيسة المصرية هى المؤسسة الشعبية التى يتظم فيها الجماهير ٠ وعبرت القوانين الكنيسية عن تقديرها للانسان، واعترفت بحقوقه فى اختيار رؤساء الكنيسة على جميع المستويات ٠

---

(1) Coptic Church, dans, A Dictionary of Christian Biography, etc. by Smith and Wace, ed. by J. Murray, Vol. 1, 1877.

ولم تتحول الكنيسة الى حلقة كهنوتية مغلقة يهدر فيها رأى جمهور الشعب · وتمسك المصريون بهذه الحقوق داخل الكنيســة نفسها وفى مواجهة السلطة الزمنية والدينية المنحرفة · وحين كان يعزل البطريرك المختار بارادة الجماهير كانت هذه تقف وراءه لا تعترف الا به وتنكر على الدخيل أى صفة شرعية · وتكرر هذا مرات عديدة فى تاريخ الكنيسة وهى تحت الحكم البيزنطى ·

والواقع أن تقييد السلطة الذى ظهرت نقطة بدايته مع رفض تأليه الحاكم الوثنى ، وتأكد أثناء مواجهة الحاكم المسيحى بمعارضة جمعه بين السلطتين المـدنية والدينية ـ كان لا بد أن يفرز آثاره داخل جهاز الكنيسة فيحترم رأى الشعب أثناء انتخاب جهاز الحكم الكنسى (١) ·

ومع ظهور الرهبنة فى اطار الكنيسة المصرية ، ومع تحولها الى حركة جماهيرية وتكوين الاديرة ذات الأعداد الكبيرة من الرهبان ـ ظهر نمط من الحياة يقوم على المشاركة فى كل شىء (٢) · كان الدير مؤسسة ديمقراطية وانتاجية وتعليمية · وفى هذه الجمهورية الصغيرة يشارك الجميع فى كل شىء ـ كل واحـــد يقـــدم ما فى

---

(١) وليم سليمان ، تيارات الفكر المسيحى ؛ مقال ؛ الطليعة ديسمبر ١٩٦٦ ، ص ٨٩ ـ الكنيسة القبطية تواجه الاستعمار والصهيونية ، ص ٣٢ ـ ومقـــال « انتخابات البطريرك والتراث الديمقراطى المصرى ؛ الطليعة ، أغسطس ١٩٧١ · وقد نشر هذا المقال مستقلا بعنوان « التراث الكنسى القبطى فى اختيار الجالس عـلى كرسى القديس مرقس الرسول كاروز الديار المصرية » مدارس التربية الكنسية بالأنبا رويس ·

(٢) عزيز سوريال عطية ؛ الرهبنة المصرية ـ تطورها وأثرها ، مجلة مدارس الأحد ، السنة الأولى ؛ نوفمبر ١٩٤٧ ص ١٩ ، وديسمبر ١٩٤٧ ص ١٣ ·
حكيم أمين ؛ دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ، ١٩٦٣ ·
وليم ورل ، موجز تاريخ القبط ، ترجمة ؛ فى « صفحة من تاريخ القبط » مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى بالاسكندرية ١٩٥٤ ؛ ص ١٣٧ ومابعدها ·

استطاعته ، ليستفيد منه المقيمون فى الدير · والمساواة هى المبدأ المطبق فى العمل وفى التوزيع ·

كانت الأديرة تعبيرا عن رفض الاستغلال السائد فى المجتمع · وليس غريبا انه حين نقل هذا النظام فيما بعد من مصر الى أوربا وبدأت جماعات « الاخوة ـ الفرير » تطبقه ، ان شكا البعض ، كما يقول الأستاذ تاونى ، من أن هذا النظام يبرز المظالم الطبقية السائدة خارجه (١) ·

ومع شنوده الاخميمى تصل الديرية المصرية الى أوج تأثيرها فى المجتمع المصرى · كانت أديرته فى الوجه القبلى معاقل للروح المصرية والفلاحين المصريين المسحوقين من الاستغلال الاغريقى · وبذل جهودا ضخمة فى تحرير هؤلاء الفلاحين أولا من مخاوفهم ومن الفزع الداخلى الذى كان من بقايا الوثنية والجهل وبسبب الظلم القاسى الذى كانوا يرزحون تحته ·

وكانت أديرته دائما مستعدة لايواء الهاربين من الظلم ـ تقدم الطعام والمأوى · وكان يذهب مع المصريين أمام أجهزة السلطة للدفاع عنهم واستخلاص حقوقهم · وكثيرا ما قاد بنفسه الحركات الشعبية فى مواجهة المستعمرين المستغلين لبلاده وأبنائها ·

وتأكدت فى تعاليم الكنيسة وفى طقوسها الدعوة الى العدل الاجتماعى ورفض أخذ العطايا من أيدى المستغلين الذين يحصلون على أموالهم من عرق العاملين وظلمهم · فلم يرتبط تعليم كنيسة مصر ـ داخل الرهبنة وخارجها ـ بسلطة حكم أو طبقة ، ولم يتخذ سندا لتبرير أعمالهما ـ للعدوان على حقوق الانسان واهدار كرامته ·

---

(١) R.H. Tawney, Religion and the rise of capitalism, Pelican Book, 1948, p. 31.

هذه التقاليد هى - فى حقيقة الأمر من الأصول التاريخية للحركة الديمقراطية والاجتماعية والوطنية المصرية فى العصر الحديث ·

وفى حقيقة الأمر فان الكنيسة القبطية عاشت دون انقطاع على أرض مصر منذ بدء التاريخ الميلادى ، تقدم نموذجا رائدا للجماعة المسيحية الأمينة لعقيدتها ، المخلصة للأرض التى نشأت عليها وعاشت فيها - اخلاصا بلا حدود ·

ومن خلال هذه الخبرة الطويلة والمكثفة برزت الممارسة المصرية للمسيحية - يقدمها هذا البلد للعالم كله ، كواحدة من أبرز انجازاته الحضارية ·

والقصة طويلة : هى فى حقيقتها قصة مصر نفسها منذ البداية· فلقد دخل المصريون الى كنيستهم بكل تراثهم - استقطروه عبر الزمن وصبوه فى الكيان الجديد الذى بدأ يضمهم - ثم اطمأنوا اليه واحتموا به · فحملهم كسفينة نجاة عبر العواصف العاتية ···

وجاء وقت كانت فيه الكنيسة مرادفا لمصر · ورجالها هم المعبرون عن صوت مصر · وعبر قرون طويلة كانت مصر مستعمرة - ولكن لها كنيسة مستقلة ·

صبت الكنيسة شعور الكرامة والاعتزاز فى نفوس المصريين جميعا ، الذين كانت تضمهم بلا استثناء قرونا عديدة منذ دخول المسيحية الى مصر - فى وقت كانت مصر تفتقد - سياسيا واقتصاديا - الكرامة · ولم ينس المصريون قط هذا الدرس ·

وفى كل العصور التالية من التاريخ المصرى حفظ المصريون جميعا لكنيسة بلادهم اعزازا وتقديرا ·

يكفى لادراك ذلك أن نقرأ ما يكتبه عنها أستاذنا د . حسين فوزى فى « سندباد مصرى » (١) .

وحـــين تحدث الهزيمـة والاحتلال الاسرائيلى آثارهما فى النفوس وتملآنها توترا، يكتب كاتب مصرى مسلم فى مجلة بيروتية: « صفحة من تاريخ كنيستى القبطية » ...

« كنيستى المصرية ...

« كنيستى القبطية هى اعرق الكنائس وأقدمها وأكثرها تعبيرا عن الأمة المصرية ورفضها التبعية أو الخضوع للاغـــراق أو السيطرة الأجنبية .. » (٢) .

ولم يصدر عن كنيسة بلادنا عرقلة لمســار النضــال الوطنى والاجتماعى - فليس ثمـة نظرية مسـيحية دينية للحـكم - فى السياسة والاقتصــاد . واذن فالمرجع دائما هــو للتحليل العملى للواقع . ويقف جمهورها وقيادتها مع الشعب المكافح ، ومن هنا أصالتها وقوتها .

انها جزء من تاريخ مصر ومن واقعها . حققت بها مصر ومازالت تحقق انجازات باقية فى طريق تقدمها الحضارى . « لذلك فانه - كما يقول د . اسماعيل صبرى عبد الله - يجب أن نتخلى عن فكرة « العصر الرومانى » ونحل محلها « العصر القبطى » - الذى يغطى قرونا ستة مرت ما بين اعتناق المصريين المسـيحية وبين الفتـــح

---

(١) ص ١١٧و١٢٨ وما بعدها . وفى مقابل هذا الاعزاز كان الكتاب المعبرون عن القوى الاستعمارية يصبون جام غضبهم على قبط مصر . تقول الانسيكلوبيديا البريطانية عن كتاب ادوارد لين Modern Egyptians انه ملىء بالتحامل على الأقباط (مادة Copts) المرجع ، ص ١١٦ .

(٢) محمد جلال كشك ، الحوادث ، ٢٤ نوفمبر ١٩٧٢ ص ٢٤ .

العربى · فقبل هـذا لم يطرأ تغيير جـذرى على عناصر الحضارة المصرية القديمة · اما فى العصر القبطى فقد ظهرت معالم جديدة·· » فى الدين ، والأدب ، والفن (١) ، وهى أيضا واقع معاصر ، يدخل فى نسيج الحياة المصرية ، ليجعل منها صورة رائعة من « الوحـدة والتناسق » (٢) ·

٣ ـ مع الاسلام

(أ) لقاء عمرو بنيامين :

حين جاء عمرو بن العاص الى مصر ، كان البطريرك القبطى بنيامين مختفيا ـ لأن وطأة الاستبداد البيزنطى فى البلاد كانت عنيفة · وطبقا لنص تاريخ البطاركة ، لما عرف عمرو بذلك « كتب الى أعمال مصر كتابا يقول فيه : الموضع الذى فيه بنيامين بطـرك النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله · فليحضر آمنا مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته · فلما سمع بنيامين هذا عاد الى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشرة سنة · منها عشر سنين لهرقل الرومى وثلاث سنين قبل أن يفتح المسـلمون اسكندرية · (عاد) لابسا اكليل الصبر وشهادة الجهاد الذى كان على الشـعب الارثوذكسى من الاضـطهاد من المخالفين · وفرح الشعب » (٣) ·

---

(١) نظرة مصرية على تاريخنا الحضارى ؛ الطليعة ، يونيو ١٩٧١ ·

(٢) كما وصف مصر بحق علماء الحملة الفرنسية ·

(٣) ساويرس ابن المقفع ، تاريخ بطاركة الاسكندرية ، طبعة افتس ـ الجزء الثانى ·

ثم التقى عمرو وبنيامين ٠

« فلما رآه (عمرو) أكرمه ٠ وقال لأصحابه : ان فى جميع الكور التى ملكناها الى الآن ما رأيت رجلا يشبه هذا ٠ وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدا، جيد الكلام بسكون ووقار٠ ثم التفت عمرو اليه وقال له : جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم٠ » (٢)٠

كان هذا هو اللقاء الأول بين المسيحية والاسلام على أرض مصر ٠

لم يكن سحقا ٠

وما يعطيه قيمته التاريخية انه يعقب قهرا كان يمارسه مسيحيو بيزنطة ضد مسيحى مصر ٠

ومن الواضح ان أساس اللقاء لم يكن اعتناق أحد الطرفين لعقيدة الآخر - رضاء أو جبرا ٠

على العكس من ذلك ٠ كان أساس اللقاء احترام كل طرف لعقيدة الآخر ٠ أى تعايش العقيدتين الدينيتين معا ٠ أى تعايش مطلقين ، لا يستبعد واحد منهما الآخر ٠

ونحن لا نستطيع أن نفهم منطق هذا التعايش وابعاده الا اذا نظرنا اليه من خلال التاريخ - نربطه بما سبق أن انجزه الشعب المصرى قبله من نقلات فكرية ، وبالآثار التى ولدها هذا التعايش بعد ذلك ٠

---

(٢) المرجع السابق ٠ ويقول المؤرخ القبطى الاسقف يوحنا النقيوسى : « احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه ٠ فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، واعادة (نشاط) الكنيسة الوطنية ؛ وأديرة وادى النطرون ودير أنبا مقار وجاء الرهبان أفواجا يؤكدون اخلاصهم للقائد العربى » أوردها حسين فوزى سندباد مصرى ، ص ١٦٤ ٠

فلقد رأينا أن شعب مصر رفض تأليه الحاكم الوثنى ٠

ورفض الربط بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى المرحلة المسيحية ٠ ورفض أن يكون للحاكم حق فرض عقيدة مطلقة ٠ لقد كان هدف الكفاح المصرى طوال العصر البيزنطى هو الوصول الى مثل هذا اللقاء والتعايش ٠

ثم تأتى هذه الخطوة الثالثة ـ لقاء الاسلام والمسيحية وتعايشهما ـ تقدما حقيقيا فى تاريخ الفكر والحياة المصريين ٠ فالمواجهة فى المجتمع بعد ذلك لن تكون بين عقائد دينية مطلقة ، أى لن يقف مطلق فى مواجهة مطلق آخر ٠ بل هى تعنى أن جميع المطلقات تقف متجاورة متعاونة تواجه كلها واقع المجتمع ومشاكله الوطنية والاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية ٠

نعم ان الحياة فى مصر لم تتح لهذا اللقاء أن يفرز آثاره فورا ـ اذ تعاقبت على مصر عصور من الحكم المتخلف أبعدت الشعب عن ان يكون له حكم بلاده ٠ ولكن هذه العصور بالذات صهرت المصريين معا ، ورسمت فى أعماق الفكر المصرى المعنى الحقيقى لهذا اللقاء ٠ واذا كانت قرون طويلة مضت قبل أن يتحول « التعايش » الى « وحدة » ـ فان هذا التحول كان حتميا لأنه منطق الحياة المصرية منذ أن كان فيها النيل والأرض والبشر ٠ ان هذا الكيان لا يمكن أن تكون له قيمة الا بالوحدة بين عناصره ٠

(ب) الانسان فى الاسلام :

يرفع الاسلام قدر الانسان الى مستوى الهى بالغ الرفعة ٠ ففى الحديث الشريف : « ان الله خلق آدم على صورته » وفى رواية أخرى : « ان الله خلق آدم على صورة الرحمن » ٠

وعلق الحافظ ابن حجر على ذلك بقوله : والمراد بالصورة الصفة • والمعنى أنأ الله خلقه على صفته من العلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك - وان كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء ••»

وقال الامام النيسابورى فى شرح الحديث : « خلقه على صفته، فأعطاه - على ضعفه - من كل صفة من صفات جماله وجلاله انموذجا » (١) •

ولقد اعتبر القرآن الكريم الانسان خليفة الله على الأرض • وميزه عن الملائكة بالعلم •

بل وطلب الله تعالى من الملائكة أن تسجد له :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال انى أعلم مالا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • وقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم • فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون • واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم • فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر • وكان من الكافرين •• »

سورة البقرة ٢٩ - ٢٣

---

(١) البهى الخولى ؛ آدم عليه السلام • فلسفة تقويم الانسان وخلافته ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ؛ ١٩٧٤ ؛ ص ١٤٣ • وانظر أيضا عباس محمود العقاد ؛ الانسان فى القرآن الكريم ، دار الاسلام ، القاهرة • ود• بنت الشاطىء ، مقال فى الانسان - دراسة قرآنية ، دار المعارف ؛ ١٩٦٩ •

وفى سورة ص :

« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٢٢/١) ٠

« واذا قال ربك للملائكة انى خـالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ٠ فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعـوا له ساجدين ٠ فسـجد الملائكة كلهم أجمعـون الا ابليس أبى واستكبر ٠ ولقد خلقناكم ثم صـــوَّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ٠

(الأعراف ١١)

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ٠ الذى أحسن كل شىء خلقه ٠ وبدأ خلق الانسان من طين ٠ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ٠ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة ٠ قليلا ما تشكرون » ٠

(السجدة ٦ ـ ٩)

« ٠٠٠ ونفخت فيه من روحى ٠٠٠ » (الحجر ٢٩) ٠

« والانسان فى هذا يفضل الخليقة كلها :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقنـاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنـــا تفضـــيلا » ٠

(الاسراء ٧٠)

هذه النظرة الى الانسان تجعل له كرامة ، تعم البشرية كلها ٠ قال الامام البيضاوى فى تفسير الخلافة : « ان هذه نعم تعم الناس كلهم ٠ فان خلـق آدم واكرامه وتفضيله على الملائكة بأن أمرهـم بالسجود له انعام يعم ذريته » ٠

« واذا كان في الناس من يسلك نهجا بعيدا عن سمت الخلافة ، فليس ذلك لانه لم يؤهل لها ، ولم يكلف شيئا من تبعاتها – بل لأنه جهل قدر نفسه وشرف تكليفه ومسئوليته · فانسلخ مما آتاه الله ، ·· على مثل ما تقرأ في قوله سبحانه : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين** ··· » (١) (الأعراف ١٧٥) ·

ويقول الأستاذ البهى الخولى :

« ولعل ما قدمنا يمثل الخطوط الجامعة لشخصية الخليفة الذى يتولى عن الله خلافته على الأرض – فان أحدنا اذا أراد أن يستخلف على بعض مصالحه ، أو يسند الى غيره بعض عمله فانه يتجه بطبيعة الحال الى من يكون أقرب شبها بصفاته وخصائص تفكيره وتصرفه ، حتى يتاح للعمل ان يؤدى بالاسلوب وعلى الوجه الذى يرضاه صاحبه · فلا جرم – وقد أراد الله أن تكون الخلافة لآدم – ان يؤهله بالخصائص ، والملكات التى يجتمع له بها وجود ربانى أو مثال مكتمل من معانى صفاته تعالى · فيكون وجدانه هو أثر تلك الصفات فيه ، وتكون مشيئته هى املاء تلك الصفات عليه · فلا يشاء الانسان الا ما يشاء الله ، فتؤدى الخلافة بذلك وعملا ومقصدا على أتم ما يريد الله من سداد وحكمة » (٢) ·

« ان لب أعمال الخلافة هو « أن يبدع الانسان نوعا من الكائنات الحية » ·· كائنات ليست من قبيل كائنات الطبيعة فى الشجر أو الحيوان أو الانسان ·· كائنات من أمر الله · فكل كلمة منه كائن حى · وكل اشارة وكل نظرة وكل حركة وكل فعل –

---

(١) البهى الخولى ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ·

(٢) البهى الخولى ، المرجع السابق ص ١٤٤ ·

كل شيء من ذلك كائن حي . يحيا حياة لا ندرى كنهها في ضمير الوجود وظاهره . ففي ظاهر الوجود يكون للأعمال ثباتها وقوة تماسكها واستقرارها كما يقول تعالى : « **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين** » (التوبة ١٠٩) وفي ضمير الوجود أى عند الله يكون لها حياة تنمو بها وتربو ، كما تنمو وتربو احياء الطبيعة التى نعلمها - على كيف لا ندريه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ان الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى احدكم مهرة . حتى ان اللقمة تصير مثل الجبل** » وقوله تعالى « **الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين باذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** » .

(ابراهيم ٢٤/٢٥)

... ان شأن الخلافة في الأرض ، شأن جليل ، « يعلى سعى الانسان بها في ظاهر الكون وباطنه . على مثال يثير الجد والمهابة . ويرفع قدر الانسان بين الأحياء ، بل على الأحياء كافة ...

« أيها الانسان ! هل عرفت من أنت ؟ وهل عرفت عظمة وقدر ما أسند اليك ؟ ان الملك أعجز من أن يفعل ذلك ... وان قوانين الطبيعة التى تصنع لنا كل شيء أعجز من أن تفعله .. وانه تعالى وحده هو القادر على أن يفعله . ولكنه جل علاه شاء لك أن تنوب عنه فيه ، وان يستخلفك فيه عنه فجهزك بما جهزك ، وانه لشرف سابغ وكرامة عالية أن تقوم عن الله هذا المقام ، وان تؤدى ما عليك فيه ... » (١) .

---

(١) البهى الخولى ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان :

« فالانسان الذى خلقه الله بيده من طين ، هو الأمين على كل ما فرضه الله للحياة فى الأرض من قوانين وأحكام . أى ما قال عنه القرآن الكريم « سنة الله فى خلقه » .

« وفى الآيات السابقة خلاصة ما فرضه الاسلام للانسان من تكريم واعزاز واعلاء للشان ، وزبده حكمته فى خلق الانسان ، وما أعد له فى هذه الأرض من رسالة التعلم والتعليم والابداع والتعمير . والابتكار والتطوير . والاجتهاد والمعاناة والخطأ والمكابدة . فقد خرجت المقارنة بين الانسان والملائكة من نطاق العبادة والطاعة الى نطاق العلم والمعرفة والاستعداد للتقدم والانتقال من الضعف الى القوة ، ومن العجز الى القدرة ، ومن الجهل الى الدراية . ومن الخوف الى الشجاعة ...

« وقد اهتدى الانسان فعلا بعقله الى استحقاقه دون غيره ، وقد اختير للخلافة ، بالنهوض بأمانة هذه الخلافة . قال الله تعالى : **« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها . وحملها الانسان »** .

« وما الأمانة الا حرية الانسان أى حرية ارادته ، فى الاختيار بين السبل والمفاضلة بين الأمور وهى حرية رفضتها المنباتات والجمادات بلسان الحال ، أى بسبب عجزهم عن التطور الذاتى . (اما) الانسان سيد هذه الأرض بحق (فقد) سخرت له الأنهار والبحار والسموات والأرض وما بينهما » (١) .

---

(١) فتحى رضوان ، الانسان ، الاهرام ٣ سبتمبر ١٩٧٤ .

(ج) الدين والسلطة والجماهير :

هل تغيرت العلاقة بين الحاكم والمحكومين فى مصر الاسلامية عنها في مصر المسيحية - خصوصا فى فترتى الحكم السابقتين على العصر الحديث ، ونعنى بهما عصر المماليك والعثمانيين ٠٠٠

لقد تغير دين الحاكم ودين أغلبية المحكومين ٠ ومع ذلك - فان الانفصال العنصرى والطبقى ظل قائما ٠

والسؤال الآن - هل كان المصرى يكون وعيه بشأن الدين من خلال ممارسة السلطة بواسطة حكام يرفعون شعار الدين ٠٠٠ هل كان المصرى يعتبر أن أسلوب حكم المماليك والعثمانيين هو نظام الحكم الذى تأمر به الشريعة الاسلامية ٠٠

كان شعب مصر تغمره أمواج الوافدين من كل مكان عبر أسواق النخاسة فيملأون الأرض ظلما وبدائية ٠

يكفى أن نعلم أن شرعية الحكم كانت تثبت لقاتل السلطان لندرك أية قيم كانت تسود مجتمع المماليك ٠ ويكاد يقوم فى روع من يتتبع حوادث مصر فى هذه الحقبة التعسة من تاريخها - انه ، كما يقول صبحى وحيدة ، فى غابة متوحشة تقتتل داخلها وحوش ضوار يفترس بعضها البعض ٠ وتفترس جميعا ما تلقاه بهذه الغابة من خلائق وادعة ٠٠٠ » كان يحكمها قوم يتميزون بتلك « القسوة الغريبة الرهيبة التى لا تعرف حرمة للحياة » تسود المجتمع « وحشية كئيبة ، وسط فوضى بدوية لا توصف وبكثرة غريبةحقا » ويقوم نظام الحكم المغولى على أكتاف حملة السلاح ولا يعترف بحقوق سياسية لسواهم ٠ ويدير أمور الدولة كما تدار الضياع ويجهل حدود القانون العام ٠ وفى العصر العثمانى « كانت مصر

تمس فى ذلك الوقت قاع الهوة التى دفعتها اليها أحداث القرنين الخامس والسادس عشر ... » (١) .

كان المصرى مقتنعا فى أعماقه بأن هذا الذى يجرى على أرضه ليس من الاسلام فى شيء .

وحين كان المماليك يحكمون باسم الاسلام فيصنعون الخلفاء الصغار ستارا لشرعية حكمهم – ألف المصريون التمثيليات وأنواع التحامق والملاحم ، يسخرون فيها من كل ما كان الحكام يصنعونه ، ويعبرون عن رجائهم فى مجيء المخلص الذى ينقذهم من هذا الظلم والزيف (٢) .

وهكذا واصل المصريون نفس خبرتهم القاسية التى بدأت تحت الحكم البيزنطى : الدين شعار وستار .

وفى حقيقة الأمر لم يكن ثمة فارق من ناحية ممارسة السلطة السياسية بين مسلم وغير مسلم ؛ فالمصرى المسلم لم تكن علاقته بالسلطة تختلف كثيرا عن علاقة المصرى غير المسلم بها . كلاهما لم يكن له نصيب فى هذه السلطة .

بل ان الفلاح المسلم كان أقرب الى الفلاح القبطى منه الى الحاكم المصرى الذى يدعى الاسلام . ان الانحناء على الأرض والمعاناة فى الانتاج ودفع الضرائب – بعد استخدام السياط ودخول الحبس – هذا كله كان يولد فى الوجدان الشعبى مفاهيم تجاوز المواجهة العقائدية . وكان الحاكم كثيرا ما يستخدم الخلاف الدينى لضرب

---

(١) فى أصول المسألة المصرية ؛ القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٥٢ ؛ ٨٢ ؛ ١٢٢ حسين فوزى ، سندباد مصرى ص ٢٨ و٢٩ .

(٢) وليم سليمان ، القاهرة فى مصر المملوكية ، الطليعة ، فبراير ١٩٦٩ ، ص ٤٧ .

الوحدة التى يولدها القهر ، وليقطع الطريق على الاحتمالات التى يمكن أن تؤدى اليها هذه الوحدة ، ولتسريب طاقة الشعب فى مسالك فرعية مصطنعة تستهلك الجهد الوطنى وتشغله عن قضاياه الرئيسية .

واذن فهى حقيقة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى – منذ العهد الرومانى واستمرت فى العصر الاسلامى : ان ممارسة السلطه واقعيا لم تولد فى وجدان الشعب ان الدين الصحيح هو أساس هذه الممارسة ، او أنه يشكل قيدا جديا على تسلط الحاكمين وطغيانهم . وعلى العكس من ذلك ، كان المصرى يرى عدالة الحكم غير مرتبطة بالدين . فالشيخ عبد الرحمن الجبرتى يقول ان « رأس المملكة وأركانها ، وثبات أحوال الأمة وبنيانها العدل والانصاف ـ سواء كانت الأمة اسلامية أو غير اسلامية . فهما أس كل مملكة وبنيان كل سعادة ومكرمة » (١) .

ومن خلال الخبرة المكثفة والمستطيلة التى اكتسبها المصريون من خضوعهم الطويل لقهر الحاكم الاجنبى ، أدرك المصريون ان الدين يمكن أن يكون مصاحبا للمحتل وستارا لتبرير الوضع الراهن ولمواصلة الظلم .

فى أى المجالات اذن كان المصرى يحتبر الدين خبرة مقنعة ذات أثر فى الحياة الدينية الفردية : فى الصلاة والصوم .

وفى التصوف ـ غرق فيه الشعب المصرى « الى آذانه » (٢) فالمصريون وقد فقدوا السلطة فى العالم الخارجى ، فى الحياة

---

(١) عجائب الآثار ، الجزء الاول ، ص ٩ .

(٢) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الايوبى والمملوكى الاول ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٢ .

الاجتماعيه عوضوا ما فقدوه بممارسة السلطة على قواهم الباطنة . وقد جعل الجبرتى هذه الممارسة احدى مظاهر العدالة أى السلطة . يظهر من خلالها « القائمون بسياسة نفوسهم وتعديل قواهم وضبط جوارحهم وانخراطهم فى سلك العدول . لأن كل فرد من أفراد الانسان مسئول عن رعاية رعيته التى هى جوارحه وقواه كما ورد « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (١)

ولعل أوضح تعبير عن انفصال السلطة والحكم عن الدين بمعناه الصحيح هو عزوف رجال الدين عن الدخول فى زمرة السلطة (٢) ، وانتقد الذى كان يوجه لأحد المشايخ حين يمارس احدى سلطات الحكم . ففى تاريخ ابن اياس ان الشيخ أبى السعود لما عاقب شخصا « قامت عليه الثائرة وانكر عليه الناس والفقراء . وقالوا ايش للشيخ شغل فى أمور السلطنة . واستقلت الناس به . ولم يشكره أحد .. (٣)

وحين عرض عليهم نابليون السلطة رفضوا .

على العكس من ذلك ، كان المصريون يختبرون الدين وفاعليته فى حركاتهم الثورية بقيادة شيوح الدين ، وانطلاقا من الازهر وفى رحابه . (٤)

الدين اذن كان فى قناعة الجماهير يستنكر الواقع ، وليس مصدرا وسندا وقيدا لممارسة السلطة على صعيد الواقع ، وكانت الجماهير ترى ان المكان الطبيعى لرجال الدين ليس فى صفوف الحاكمين بل فى قيادة المحكومين الثائرين .

---

(١) عجائب الآثار ، ١ ، ص ١٢٢ .
(٢) وليم سليمان ؛ محمد على حاكما ، الطليعة ، أكتوبر ١٩٦٩ ؛ ص ٥٢
(٣) صبحى وحيدة ، المرجع السابق ، ص ١١٤ هنمش ١ .
(٤) وليم سليمان ، محمد على حاكما ، ص ٥٢ .

د ـ الحياة المشتركة :

وثمة أوضاع ونظم كان الحاكم يحاول من خلالها أن يضرب وحدة الشعب المقهور ـ ولكن الجماهير كانت تنطلق فى تلقائية سريعة لتواصل حياتها فى اطارها الطبيعى ، أى التعايش والتعاون والوحدة · كانت الحياة المشتركة أقوى من كل تنظيم مصطنع ·

وتقدم التنظيمات التى كانت توضع « للملابس » و « لبناء دور العبادة » مثلين لما كان يحدث فى وسط الجماهير المصرية من تخريب ولرد الفعل الشعبى التلقائى ·

● **الملابس :**

يتضمن العهد المنسوب الى عمر (ويؤكد الدارسون ان هذه النسبة غير صحيحة ، وان هذه الانظمة وضعت فيما بعد ثم نسبت الى الخليفة عمر) (١) منع المسيحيين من أن يلبسوا ثيابا مماثلة لتلك التى يلبسها المسلمون · يقول مخاطبا المسيحيين : « وعليكم أن تلبسوا الزنانير (أى الأحزمة) من فوق جميع الثياب والاردية وغيرها حتى لا تخفى الزنانير وتخالفوا المسلمين بسروجكم وركوبكم : وتباينوا قلانسكم وقلانسهم بعلم تجعلونه بقلانسكم » (٢) ·

أما الذى نفذ هذه الاحكام فهو الحاكم بأمر الله المشهور بشذوذه · ثم تابعها بدر الجمالى والظافر وشركوه · وفى عهد الناصر (١٣٠١) وبناء على تحريض من أحد المغاربة شدد

---

(١) ا·س· ترتون ، أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشى القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٦ ·

(٢) المرجع السابق ص ٩ ·

السلطان هذه الاوضاع · ثم تعاقب اصدارها عام ١٣٢١ و ١٣٥٦ و ١٤١٧ و ١٤٥٠ · ومن غير المستغرب أن يعمد نابليون الى تأكيد الفرقة بمنع الاقباط من ارتداء الثياب البيضاء (١) ·

والشيء الجدير بالملاحظة هو أن هذه الاحكام كان يعـاد اصدارها مرة بعد أخرى - الامر الذى يعنى انه فى كل مـرة كانت توضع موضع التنفيذ سرعان ما كانت تهمل فلا يلتفت اليها أحد · الى أن سقطت نهائيا بعدم التطبيق ·

فماذا يعني تحديد نوع من الملابس لأصحاب كل دين ؟

انه يعنى تجسيد التفرقة والانفصال بين فئات المجتمع · وتحويل نظر الجماهير عن التفرقة الوحيدة التي يجب أن تكون محور انتباهها وهى الفوارق العنصرية والطبقية بين الحـكام والمحكومين ·

وماذا يعنى اهمال تطبيق هذه التنظيمات ؟

يعنى أن المجتمع يفهم نفسه على أساس الوحدة · وان محاولات التقسيم داخله غير ممكنة · ولقد أوردنا فى البداية النص الذى يجعل الاندماج أساسا للحياة فى المجتمع ، فينهى المسيحيين عن اصطناع ملابس أو لغة أو أماكن خاصة بهم · ونحن هنا نجد المجتمع المصرى يطرح جانبا كل محاولة لتكريس الفرقة والانفصال فيه ·

● بناء دور العبادة :

جاء فى العهد المشار اليه أيضا « ليس لكم أن تظهروا الصليب فى شيء من أمصار المسلمين ولا تبنوا كنيسة ولا موضع مجتمع

(١) Wiet, Kibt, The Encyc. of Islam, p. 997.

لصلاتكم . ولا تضربوا بناقوس . » وترددت هذه الاحكام فى الخط الهمايونى الذى أصدره الخليفه العثمانى عام ١٨٥٦ . والخط يفرق بين اماكن يكون « جميع أهاليها من مذهب واحد منفردين يعنى غير مختلطين بغيرهم » وبين « المدن والقصبات والقرى التى تكون أهاليها مركبة من جماعات مختلفة الاديان » ويجعل اقامة البناء مشروطا بأن « تستدعى بطاركتها أو جماعة مطارنتها الرخصة اللازمة من جانب بابنا العالى فتصدر رخصتنا السنية عندما لا توجد فى ذلك موانع ملكية من طرف دولتنا العلية » .

ان المنهج الذى نتبعه فى هذه الدراسة هو تتبع مصير هذه الاحكام فى الواقع . وأول شىء يفصح عنه الخط الهمايونى هو تعارضه تماما مع الواقع المصرى لانه يفرق بين أماكن يعيش فيها المسيحيون وحدهم وأماكن أخرى يعيشون فيها مع غيرهم . واذا كان هذا الوضع موجودا فى اقطار الامبراطورية العثمانية الأخرى فهو غير قائم فى مصر . فكما ذكر د . جمال حمدان لا توجد قرية فى مصر لا يعيش فيها الاقباط بجوار المسلمين (١) ومن أجل ذلك فان قضاة مصر كانوا يضعون فى الاعتبار ظروف الواقع ، وطبيعة العلاقات فى المجتمع المصرى وكيف ان مثل هذه الاحتياطات التى يقول بها الخط العثمانى لاداعى لها هنا . ولهذا فقد أفتى الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة قاضى مصر بأن بناء الكنائس هو من عمارة البلاد وأكدا ان جميع البيع التى بمصر انما بنيت فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين (٢) . ولابد أن تعتبر هذه الفتاوى المعبرة عن البيئة المصرية والعلاقات الاجتماعية فيها من المصادر التاريخية لمبادىء الحريات والحقوق الدستورية فى مصر .

---

(١) شخصية مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ، ص ٦٥ .
(٢) ترتون ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

ان هذه الفتاوى المرتبطة بكفاح المواطن من أجل الحصول على هذه الحقوق تشكل صفحات في النضال المصرى فى هذا المجال.
ولقد كانت حصيلة هذا كله الأمر الواقع الذى سجلته لجنة تقصى الحقائق التى ألفها مجلس الشعب بمناسبة الاحداث الطائفية لقد جاء فى هذا التقرير ان عدد الكنائس التى تقام فيها الصلاة دون حاجه الى تصريح مسبق يبلغ اضعاف الكنائس المصرح بها رسميا . اى ن العادة والعرف فى مصر قد أكدا قاعدة قانونية قامت واستقرت على أساس التعايش والتعاطف . ولم يخطر فى تصور فلاح مسلم أو قبطى أن مكان الصلاة يحتاج كى يمارس فيه القوم شعائر دينهم الى صدور فرمان من الباب العالى فى الآستانة (١)

ولقد وصل الاحترام المتبادل بين جماهير الشعب ، وعمق الحياة المشتركة والتعاون ـ ان المؤرخين رووا كيف ان القائمين على الجامع الغمرى أعاروا بعض كنائس القبط البسط والقناديل لاستعمالها فى بعض مهماتهم وغضب السلطان بسبب هذا التعاون حتى هم بقطع لسان المعيرين (٢) .

بل ان الحياة اليومية فى مصر قد فتحت أبواب الكنائس للجميع يتبادلون أثناء ممارسة العبادة أعمق مشاعر المجاملة والتعاطف .

فصلاة الاكليل التى يتم بها الزواج القبطى يحضرها الاصدقاء جميعا مسلمين ومسيحيين . هكذا أيضا فى صلوات الجنازات .

---

(١) وليم سليمان ، الخط الهمايونى والواقع المصرى ؛ الأهرام ٤/١٢/٧٢
(٢) أوردها أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى الدار القومية ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٩ .

هـ ـ الفن

وكان الفن القبطي أيضا ـ وهو فن مصري احتضنته الكنيسة القبطية وعبرت من خلاله عن الصلوات والتسابيح وصور القديسين وبناء الكنائس والأديرة ٠٠ كان هذا الفن معبرا في نفس الوقت عن الروح المصرية ٠

ذلك أن الفن القبطي منذ نشأته هو فن شعبي ٠ فمع اخضاع مصر للامبراطورية الرومانية ، لم تعد مركزا للسلطة السياسية ، ولم يعد فيها مكان لطبقة ترعى الفنانين وتجعلهم تابعين لقصور الحاكمين واتجاهاتهم ٠ كانت مصر مقاطعة نائية ، تثير الاضطرابات المتوالية ٠ لهذا لم يكن هناك مجال لأن يهتم حكام روما وبيزنطة باقامة منشآت فنية رائعة فيها ـ فيما عدا بعض استثناءات قليلة ٠ فتركت كنيسة مصر عمدا لنشاطها الخاص ، فكان لابد لها أن تلجأ من أجل اقامة بيعها الى مواهب ابنائها وابتكارات فنانيها ، وتراث بلادها الفني ـ الصوتي والتشكيلي ـ القديم ٠ فمصادر الفن القبطي في المحل الأول شعبية ٠ فهو من أصل يستمد أصوله من تراث مصري دفين والأعمال الفنية أبدعها الشعب المصري ووضع فيها الفنان القبطي عصارة روحه ومهارته ٠ وهو فن ينبع من البيئة المصرية وعبر عنها فنرى في صور الوجوه القبطية ملامح المصري بعينيه الواسعتين المستديرتين كما نرى في الصور مظاهر البيئة من حيوان ونبات ٠

وهو فن جمال لا ضخامة ـ يهتم أساسا بالتعبير عن المعنى ٠ ولقد بلور الفنان القبطي استقلاله عن الفن البيزنطي أثناء الخلاف العقائدي بين الاسكندرية وبيزنطة منذ القرن الخامس ٠

وواصل الفن المصري حياته بعد الاسلام ٠ وظل الفنانون

المصريون يستوحون تقاليدهم العريقة ، لأنها فى مجموعها تعبر بصدق وأصالة عن الشعب المصرى – وظهر ذلك فى مختلف أشكال الفن : فى النسيج والخزف والصياغة والحفر على الخشب . وعمل الصناع المصريون – المسلمون والمسيحيون معا فى الكنيسة والمسجد (١) .

ومن خلال الفولكلور نجد – حسبما انتهى الى ذلك محمد العزب موسى – وحدة تاريخ وواقع الحياة فى مصر . وهذا هو التعبير الدفين والتلقائى عن الحياة المشتركة . فكما يقول أحمد رشدى صالح ، « الواقع ان الأدب القبطى العامى واللغة الدارجة القبطية

Etienne Drioton, Introduction à l'Art Copte, Revue « La Femme Nouvelle, été 1951, p. 9.

Sami Gabr, Caractères de l'Art Copte, B. de l'Association des Amis des Eglises et de l'Art Copte, 1935, p. 37.

E. Drioton, L'Art Copte au Muste du Louvre, B. de l'Association des Amis, op. cit., 1936, p. 4.

Aziz Atiya, A History of Eastern Christianity, Mehuen and Co., London, 1968, p. 131.

Hilde Zaloscer, Strozygowski, sa méthode et ses recherches sur l'Art Copte, B. de la Société d'Archéologie Copte, t. VI, 1940, pp. 1 et s.

Ragheb Moftah, The Music of the Coptic Church. معهد الدراسات القبطية

A.H. Scandar, Coptic Art, dans New Catholic Encyclopedia, p. 305.

زكى محمد حسن ، بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية ، مجلة جمعية الآثار القبطية ، ١٩٣٧ ، ص ٧٥ وما بعدها سعاد ماهر ، أثر الفنون التشكيلية الوطنية القديمة على فن القاهرة فى العصر الفاطمى ، دراسة مقدمة أثناء الاحتفالات بألفية القاهرة .

وليم سليمان ؛ الفن القبطى ، مجلة مدارس الاحد ، أغسطس ١٩٥٨ ؛ ص ٤

مراد كامل ، حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٣٢ .

لبيب يعقوب صليب ، الفن القبطى المصرى فى العصر اليونانى الرومانى ، ص ٤٢ .

الاب متى المسكين ، التسبحة اليومية ومزامير السواعى ، رسالة بيت التكريس بحلوان ص ١٣٥ وما بعدها .

حسن عبد الوهاب ؛ وحدة الفنون المعمارية بين الآثار الاسلامية والقبطية ، وطنى ؛ ١٩٥٩/٣/١ .

مازجا الادب العربى واللهجات العامية العربية واستوى من ذلك مزاج عربى قبطى ، او فل استوى مزاج قبطى اسلامى . وهذا يصدق على الشكل والمحتوى سواء ، بسواء ... » (١) .

« وفى لقاء مع الفنان المصرى بليغ حمدى ، يروى أحد محررى جريدة وطنى ، ان الفنان طلب ان تتاح له فرصة سماع التراث الموسيقى القبطى كله وقال انه سمع فعلا القداس الباسيلى وانه يؤمن بان هذا التراث يجب أن يحفظ وأنه نبع لا ينضب لكل الملحنين . وان هذه الموسيقى الفرعونية القبطية يجب أن تقدم للناس فى شكل يحفظ لها أصالتها وقيمتها » ويقول المحرر أن هذا الكلام ذكره بحديث آخر للموسيقار محمد عبد الوهاب منذ سنين وقد أبدى اعجابه بالموسيقى القبطية بل واعترف أنه كان يذهب الى كنيسة مارمرقس بكليوباترا بمصر الجديدة لسماع الألحان القبطية . بل واقتبس بعضها فى أغنياته القديمة (٢) .

(و) الاتصال بالحضارة الغربية :

وحين اتصل العقل المصرى بالحضارة الغربية جرى حوار حضارى . أثبت فيه الانسان المصرى قدرته على ادراك معنى المواجهة . فعلى الرغم من سنوات التخلف التى فرضت على مصر وتراكمت فيها رواسب الجهل — لم يفقد العقل المصرى حدته وقدرته على الرؤية ، وانه يواصل تقاليده العريقة منذ مئات السنين . ان متابعة كتابة شيوخ العصر ، توضح أن ثمة انحيازا منهم الى جانب العقل .

---

(١) محمد العزب موسى ، وحدة تاريخ مصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٩١ وما بعدها .
احمد رشدى صالح ، الادب الشعبى ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢) فايز فرح ، وطنى ٢٠ أكتوبر ١٩٧٤ .

ويجرون المقارنات التى يستفاد منها أن علماء الاسلام يقدرون العقل ويحترمونه ٠

فبمناسبة محاكمة سليمان الحلبى يشير الجبرتى الى أوراق الاتهام واجراءات المحاكمه ٠ وعلى الرغم من انه يصف كتابه الاوراق « بركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة » الا انه اثر ايرادها لتضمنها خبر الواقعة « وكيفية الحكومة فيها ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ٠ وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقى اهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه — لم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آله القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ٠ رتبوا حكومة ومحاكمة ٠ وأحضروا القاتل وكرر عليه السؤال والاستفهام — مرة بالقول ، ومرة بالعقوبة ٠ ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ٠ ثم أنفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم ، وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط — حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجب عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور ٠ بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية ٠٠ » (١) ٠

ويكتب الامام عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر المعاصر للحملة الفرنسية تقويما عاما للحملة ، فيعبر عن يقظة العقل المصرى وقدرته على رؤية حقيقة الظاهرة ، رغم الاختلاف فى الدين :

« وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا الى مصر انهم فرقة

---

(١) عجائب الآثار جزء ٣ ، ص ١١٦ ٠

من الفلاسفة اباحية طبيعية ، يقال لهم نصارى قاتوليقية · يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين · ويقولون ان الله واحد ولكن بطريق التعليل ·

« ويحكمون العقل ، ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام بعقولهم ويسمونها شرائع ·· ويزعمون ان الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء · وان الشرائع المنسوبة اليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ·

« ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر · فانهم جعلوا من جملة ديوانهم جماعة من المشايخ وصاروا يراجعون بعض أشياء لا تليق بالشرع ·· » (١) ·

هنا نجد أمثلة نموذجية للحوار فى أرقى مستوياته — ان « الآخر هنا يفهم فى حقيقته — كما يريد هو نفسه ان يفهمه الغير · ولا تقف فى طريق هذا الفهم العادل بل والمنصف عقبة من عقيدة للشخص مغايرة · حتى لو كانت دينا له طبيعة المطلق ·

ونحن نجد أيضا فى الشيخ حسن العطار نموذجا للتفتح

---

(١) كتاب تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، تأليف الامام الشيخ عبد الله الشرقاوى رحمه الله تعالى آمين · وهو على هامش كتاب « لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » تأليف العبد الفقير الى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبدالمغنى بن على الاسحاقى المنوفى نفعنا الله به آمين ، ص ٢٤٥و٢٤٦و٢٤٧ ·

أوردها وليم سليمان ، وثائق تاريخية عن الحركة الدستورية فى مصر من أواخر القرن التاسع عشر ، الطليعة يوليو ١٩٦٩ ، ص ١٦٠ ·

والرغبة فى تغيير المجتمع · فقد جاء الفرنسيون وهو شاب عالم صغير ، فاتصل بهم ليتعلم منهم أشياء من معارفهم · وكان « يقول ان بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها · ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة الفرنسية ـ من المعارف والعلوم » · (١)

ولدى الطهطاوى نجد وضوح الرؤية كاملا فحين زار فرنسا ودرس نظمها وعاش حياة المجتمع فيها تبدت له الفـــروق بين الصورة العثمانية المتخلفة وبين الحضارة العربية · فقـــد أوجـز « خلاصة » رحلته الى فرنسا بعد تدقيق النظر وامكان الفكر فقال : « آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية ·· أقرب شبها بالعرب ·· منهم بالترك ·· » (٢) ·

هذا كله يوضح ما كان يجرى فى النفس المصرية من نقـــد لأوضاع المجتمع ودعوة لتغييرها · وهو نقد بدأ ظهوره قبل مجيء الحملة الفرنسية واستمر بعد خروجها وكان هو القـــوة الدافعة وراء قفزة الشعب لتكوين مصر الحديثة ·

ثانيا : مصر الحديثة

هـكذا كان يجرى الحـوار على أرض مصر ، لم يكن نقاشـا ميتافيزيقيا بل كان حوارا مع الفكر والواقع فى نفس الوقت ·

(١) خطط على باشا مبارك جـ ٤ ص ٢٨ ·
أوردها محمود الشرقاوى ، المرجع السابق ص ٤٦ .
(٢) تخليص الابريز فى وصف باريز ، طبعة وزارة الثقافة ، ١٩٥٨ ، ص ٣٠٣ طبعة بيروت ص ٢٥٦ .

ولقد رأينا كيف أن كـلا من الدينين واجه نفس التحـديات تقريبا • وصدرت عن جماهير كل منهما نفس الاستجابة •

فى كل من مصر المسيحية ومصر الاسلامية كان ثمة انفصال بين الحاكم والمحكومين ـ عنصرى طبقى •

وفى كل منهما كانت وحدة ـ على نحو ما ـ فى الدين بين الحاكم والمحكومين •

ومع ذلك مارست الجماهير دينها منفصلا عن السلطة • عاشت الدين خبرة شخصية روحية : فى اعتناق مفهوم للانســان يربطه بالمطلق • وفى العبادة وفى الرهبنة ثم التصوف ، وفى الرفض • أى أن الدين هـو فى مفهوم الجمـاهير ممارسـة شـخصية وقوة ثورية •

وهكذا من خلال تراكم الخبرة رسخت مبادىء وقيم معينة فى الشخصية المصرية واستخلصت الممارسـة عقيدة مشتركة اعتنقهـا المصريون جميعا • وكان كل دين يساند هذه العقيدة ويدعمها لدى المنتمين اليه ـ نعنى بهذه العقيدة فكرة الوطن والوطنية والمواطنة والوحدة الوطنية •

فقد عرفت مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر نوعا جديدا من الحياة ـ فيها شىء من الفكر والتخطيط وتحـديد الأهـداف وتدبير الوسائل • وشمل ذلك جميع مجالات الحياة ، فعرفت مصر الزراعة المنظمة والمصانع الكبيرة والجهاز الادارى المحكم • ووقف أبناء مصر جنبا الى جنب ـ بعد ألوف السنين ـ فى جيش واحد • واتصلت بالفكر الحديث فى بلاده وانتشرت مفاهيمه بين أبنائها • ودخلت مصر معارك عنيفة مع الاسـتعمار الغربى السياسى والاقتصــادى والعسكرى • وخـرج من أعماق مصر مارد ضـخم : الوطن • ومع الطهطاوى نجد التعبير الحديث عن الوطن والوطنية والمواطنة •

عن مصر الوطن يقول الطهطاوى « أجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافع العمومية · فكيف لا ، وان آثار التمدن وامارته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثه وأربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد ، ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع · فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هى من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها · فانظر الى آثارمنف وهيمدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الأول ··· ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك ·· (١) · وقد تحقق فى مصر اسمها بالمعنى المتعارف أكثر من غيرها لمصير الناس اليها واجتماعهم فيها لمنافعهم ومكاسبهم · وما ذاك الا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى اتساع دائرة تقدمها فى التآنس الانسانى والعمران وأحرازها أعلى درجة التمدن من قيم الزمان · وعلى مر العصور وكر الدهور انصقلت فى مرآة جوهرها صور أخلاق الخلائق وتهذبت طباعهم على التدريج وتشبثوا بثمرات العلوم والمعارف ووقفوا على الحقائق · وبمخالطة غيرهم من الأمم ذاقوا حلاوة الأخذ والعطاء وكثرة العلائق · وكما تمدنوا بصنائع العمران تدينوا بما اتخذوه من الأديان » (١) ·

وعن حب الوطن :

« ارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه ·· فالوطن محبوب،

---

(١) كتاب مناهج الالباب المصرية فى مناهج الاداب العصرية ـ الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى . دراسة وتحقيق محمد عمارة ، بيروت ، الجزء الاول ١٩٧٣ ص ٣٨٣ ·

وانظر فى هذا كله

Anouar Abdel Malek, Idéologie et Renaissance Nationale. L'Egypte Moderne, Paris, 1969.

(١) مناهج الألباب ؛ المرجع السابق ص ٢٤٩ ·

والمنشأ مألوف ٠٠٠ وبالجملة فحب الأوطان على عظم الحسب وكرم الأدب أبهى عنوان وهو فضيلة حليلة لا يؤدى حق الوفاء بها الا من حاز الشمائل النبيلة ، ولا تعين عليها الا الهمم العلية والعزائم المملوكية التى تقلد أعناق الأمة على المنعة والنعمة ٠ فتبعثهم على التشبث بالأوطان والتعلق بأذيال الاخوان والخلان ولا سيما اذا كان المواطن منبت العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر ٠ فهى أعز الأوطان لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها » (١) ٠

ثم سجل الطهطاوى **مبدأ المواطنة** ، وسجل نتيجة التطور الذى حدث فى مصر ٠ يقول :

« فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن من (مكارم الأخلاق) يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على البعض لما بينهم من الاخوة الوطنية ٠٠٠ فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناءه وثروته ٠ لأن الغنى انما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية ٠ وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية ٠ فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ، ثبتت لهم المكارم والمآثر ،ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها » (٢) واذن ففى خلفية العقيدة الوطنية يكمن مفهوم الانسان الذى تتحقق له الكرامة على الأرض ، والحوار مع الواقع فى حياة مشتركة من خلال العقل والعلم ٠ واذ انتفى مبدأ الاستبعاد انفتح الطريق أمام جميع المكونات البشرية فى المجتمع للمساهمة فى نضاله وتقدمه٠ فالحياة المشتركة

---

(١) ٢٥١ - ٢٥٦ ٠

(٢) ص ٣١٩ ٠

ولدت مبدأ المواطنة التى تضم على قدم المساواة جميع المواطنين مع تعدد أديانهم ٠

ولان حقوق الوطن ما كان يمكن استخلاصها بدون نضال ، **فلقد استقر مبدأ يقضي بأن أداء واجبات النضال الوطنى هو الطريق لحصول المواطن أو مجموعة من المواطنين على حقوق المواطنة ٠**

روى المرحوم فخرى عبدالنور بعض الظروف التى صاحبت تكوين الوفد فقال : « كنت انا وشقيقى المرحوم لبيب عبد النور بك عضوين فى نادى رمسيس وهو ناد يضم كبار الأقباط ٠ فلما زرت النادى فى مساء اليوم الذى قابلت فيه المرحوم على شعراوى باشا فى مدرسة الناصريه رويت للحاضرين ما سمعته منه (عن مقابلة المعتمد البريطانى السير ريجنالد وينجت يوم ١٣نوفمبر ١٩١٨) ودار الحديث بينى وبينهم فى هذه الموضوعات التى بدا الرأى العام يهتم بها أكبر اهتمام على الرغم من الرقابة والاحكام العرفية ٠ وكان الحاضرون من أعيان الأقباط ومثقفيهم ومفكريهم٠ فلاحظوا ان أسماء أعضاء الوفد التى ذكرت بعرائض التوكيلات التى توزع فى البلاد ليس بينها اسم واحد من الأقباط ٠ ورأوا أن هذا لا ينبغى ان يكون وانه لابد من استكمال هذا النقص وقرروا انتداب ثلاثة من الحاضرين للذهاب الى سعد باشا وعرض هذا الموضوع عليه ٠٠٠ وقد رحب بنا سعد باشا ترحيبا كبيرا وأعرب عن اغتباطه بالفكرة التى حضرنا من أجلها ٠٠٠ وأذكر انه حدث فى أثناء هذا الحديث أن تحمس الأستاذ توفيق اندراوس وكان سعد باشا يشرح لنا أهداف الوفد فقال معقبا على كلمة سعد باشا : ان الوطنية ليست حكرا على المسلمين وحدهم ٠ فسر سعد باشا وقبله على هذه الكلمة ٠ وعاد الأستاذ توفيق فأكد أن العنصرين اللذين تتألف منهما الأمة ـ المسلمين والأقباط – يعملان بتفكير واحد ورأى واحد فيما يحقق مصلحتهما فى الحصول على الاستقلال ٠٠ » وعرض الأستاذ واصف

بطرس غالى لعضوية الوفد . فاغتبط سعد باشا لهذا الاختيار وأعرب عن ثقته وتقديره لعلمه ومكانته ... ثم رأى الوفد بعد ذلك أن يضم ... سينوت حنا بك العضو فى الجمعية التشريعية وجورج خياط بك من كبار أعيان أسيوط فحلفا اليمين مع حمد الباسل باشا فى جلسة واحدة وكان ذلك فى ٢ ديسمبر ١٩١٨ » (١) .

وظل الأقباط يقومون بدورهم السياسى فى الحركة الوطنية داخل الحزب الشعبى الذى كان يمثل تمثيلا صادقا مطالب الأمة ويقود كفاحها ــ ونعنى به حزب الوفد .

ولعل ما حدث عند انقسام الوفد عام ١٩٢١ يكشف عن مدى اصالة الوعى الوطنى عند كل مكونات الشعب المصرى . فقد اشتد الخلاف بين سعد وعدلى - ويقول دكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته ، انه قد « انضمت طوائف السواد من الأمة لسعد وطوائف المثقفين والاعيان لعدلى رئيس الوزراء » (٢) واختلف أعضاء الوفد ، ويقول عباس العقاد « فكانت القلة فى جانب سعد والكثرة فى جانب عدلى . وتعلل الأكثرون بفتور الثورة وانصراف النفوس عن القضية واستبعدوا أن تنال مصر أكثر مما نالته فجنحوا الى التساهل والتسليم ، وخالفهم سعد وصحبه الاقلون مستكبرين أن يقنعوا من الثورة بهذا النصيب وهى فرصة لا تعود فى كل جيل . فتمسكوا بالغاء الحماية فعلا ورسما وهم يعتقدون أن لا خسارة على مصر بهذا التمسك ولو ضعفت فيها المقاومة وفتر الاستعداد للمثابرة . وأقل ما هنالك أن لا تسجل التفريط المحقق على نفسها وأن لا تركن الى تعود الخيبة بعد انبعاث الرجاء ولا تزال متربصة لاستئناف الجهاد كلما قدرت عليه » (٣) .

---

(١) المصور ٢١ مارس ١٩٦٩ .
(٢) الجزء الأول ؛ ص ١٢٢ .
(٣) سعد زغلول ، سيرة وتحية ، ١٩٣٦ ؛ ص ٣٣٥ .

« وتمسك سعد بموقفه كاتجاه يمثل ارادة الأمة القومية ، في مواجهة عدلي وهو يتمسك بمبادئه التي يجتمع في ظلها الرجعيون متساندين مع الاتجاه البريطاني وموقف السراى » (١) ٠

واجتمع يوم ٢٨ أبريل ١٩٢٨ عشرة أعضاء ، صوتت الأغلبية منهم ضد سعد ٠ يقول محمود سليمان غنام أنه « حدث في عام ١٩٢١ أن تآمر أعضاء الوفد لخلع سعد زغلول فلم يقف بجواره ضد المؤامرة الا مجموعة الأقباط ومصطفى النحاس » (٢) أى واصف غالى ، وسينورت حنا ، وويصا واصف (٣) هؤلاء كانوا يمثلون رأى « السواد من الأمة » المتمسكون باستمرار الثورة حتى تحقق أهدافها فعلا ، المعبرون عن ارادة الأمة القومية ٠

ومضت الحياة المشتركة على أرض مصر - الجميع أقباطا ومسلمين يواجهون المستعمرين صفا واحدا ٠ وتمتلىء كتب المذكرات الشخصية لمعاصرى هذه الفترة بالذكريات الانسانية الوطنية الأصيلة ٠ يقول أحمد أمين : « انغمست في السياسة واشتركت في المظاهرات وخاصة في المظاهرات التي ترمى الى التقريب بين الأقباط والمسلمين فكنت أتلمس المظاهرة فأركب عربة وأنا بعمامتي أصطحب فيها قسيسا بملابسه الكهنوتية ونحمل علما فيه الصليب والهلال » (٤) ٠

---

(١) عبد العزيز رفاعى ؛ ثورة مصر سنة ١٩١٩ ؛ الطبعة الأولى ، ص ٢٥١

(٢) روز اليوسف ، حديث ، ١٦ ديسمبر ١٩٧٤ ص ٥٠ ٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى ؛ في أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الأول ، ١٩٥٥ ، ص ١٣ عبد العظيم رمضان ، تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ - ١٩٣٦ ، ص ٣٢٥ ٠

(٤) حياتي ، ١٩٥٠ ص ١٩١ وانظر أمثلة أخرى كذلك حسين فوزى ، سندباد في رحلة الحياة ، اقرأ رقم ٣٠٦ ، ص ٩٨ وما بعدها .

وعن القمص سرجيوس ، محمد عوده ، سبعة باشاوات وصور أخرى ، الكتاب الذهبى ، ابريل ١٩٧١ ، ص ٨٥ .

واذا كنا قد رأينا المؤتمرات الحديثة للحوار بين الأديان تحاول أن تمارس التقارب من خلال لحظات العبادة والتأمل – يشترك فيها الجميع على الرغم من اختلاف أديانهم ، فاننا نجد فى التجربة المصرية خبرة مماثلة أكثر شمولا وواقعية ٠

فصلوات الكنيسة فى القداس مليئة بما يعبر عن احتياجات الشعب المصرى كله – فالكنيسة تصلى كما رأينا فيما سبق عن أرض مصر ونيلها وزرعها وثمرها ٠٠٠

بل ان فى التاريخ المصرى الحديث واقعة تعبر بصدق عن ممارسة العبادة يشترك فيها المسلمون والمسيحيون لمواجهة تحديات واقعية ، يعانى منها الشعب المصرى جميعه ٠ ذلك انه عندما سافر وفد المفاوضات المصرى الى لندن لاجراء أول مفاوضة مع الانجليز ، اقترح المرحوم على ماهر على الشاعر الكبير أحمد شوقى « أن يكتب دعاء يتلى فى المساجد والكنائس ليكلل الله جهود الوفد بالنجاح فى مفاوضاته بلندن ٠٠٠ وقد حصل الدعاء فى المساجد والكنائس فكان ذلك بمثابة اذن وتصديق من الأمة على سفرنا ٠٠٠ (١) ٠

وفى كل مراحل الكفاح الوطنى ، كانت وحدة الشعب خطا أساسيا فى كل حركة ٠ وقد أفرد فتحى رضوان لهذه الناحية فى

---

(١) هذا هو نص الدعاء الذى أعده أمير الشعراء : « اللهم قاهر القياصر : ومذل الجبابر وناصر من لا له ناصر ٠ ركن الضعيف مادة قواه ، وملهم القوى خشيته وتقواه ، ومن لا يحكم بين عباده سواه فهذه كنانتك فزع اليك بنوها ، وهرع اليك ساكنوها – هلالا وصليبا ، بعيدا وقريبا ، شبانا وشيبا ، نجيبة ونجيبا ٠ مستبقين كنائسك المكرمة ، التى رفعتها لقدسك أعتابا ميممين مساجدك المعظمة التى شرعتها لكرمك أبوابا ٠ نسألك فيها بعيسى روح الحق ؛ ومحمد نبى الصدق ، وموسى الهارب من الرق ٠ كما نسألك بالشهر الابر والصائمية وليلة الأغر والقائمية ، وبهذه الصلاة العامة من أقباط الوادى ومسلميه ٠ أن تعزنا بالعتق الا من ولائك ، ولا تنزلنا بالرق لغير آلائك ولا تحملنا غير حكمك واستعلائك ٠ اللهم ان الملأ منا ومنهم قد تداعوا الى الخطة الفاضلة والكلمة الفاصلة ؛ فى قضيتنا العادلة ٠ فأتنا اللهم حقوقنا كاملة واجعل وفدنا =

حياة مصطفى كامل عدة صفحات ـ أورد فيها بعضا من خطب هذا الزعيم المصرى الكبير · ففى ٨ يونية ١٨٩٧ يقول : « ان المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما أبدا » وهو يواجه مخططات كرومر بمنهج سليم يعبر عن روح مصر الحديثة اذ يقول « ان المصريين اليوم يهتدون فى سيرهم بنور العلم والمعرفة » ويورد فتحى رضوان كيف انتخب ويصا واصف عضوا بأول لجنة ادارية للحزب الوطنى فى ١٧ ديسمبر ١٩٠٧ (١) ·

وثمة خصيصة فى الحياة المصرية ـ انه حتى حين يحدث الخلاف ، فانه سرعان ما يطويه التيار العام المستمر الذى يمثل الخط الثابت لهذه الحياة · ولعل من أبرز الأمثلة على هذه الخصيصة ما حدث أيام الشيخ عبد العزيز جاويش · لقد وصل تبادل المقالات مستوى لم تعرفه الحياة فى مصر · وكان الاحتلال الانجليزى ينفخ فى نار الفتنة كى يجد فى البلاد الفرصة التى وجدها فى الهند · وحين توفى محمد فريد وقف عبد العزيز جاويش على قبره يؤبنه ومس ما جرى فى فتنة ١٩٠٨ يقول « ابصر فريد كيف اتحدت كلمة

= فى دارهم هو وفدك وجندنا الأعزل الا من الحق جندك · وقلده اللهم التوفيق والسداد واعصمه فى ركنك الشديد · أقم نوابنا المقام المحمود وظللهم بظلك المحمود وكن أنت الوكيل عنا توكيلا غير محدود سبحانك لا يحد لك كرم ولا وجود ؛ ويرد اليك الأمر كله وأمرك غير مردود · واجعل القوم مخالفينا ولا تجعلهم مخالفينا ، واحمل أهل الرأى فيهم على رأيك فينا اللهم تاجنا منك نطلبه ، وعرشنا اليك نخطيه واستقلالنا التام بك نستوجبه ، فقلدنا زمامنا ، وولنا أحكامنا ، واجعل الحق امامنا · تمم لنا الفرح ، بالتى ما بعدها مقترح ولا وراءها مطرح . ولا تجعلنا اللهم باغين ولا عادين ، واكتبنا فى الأرض من المصلحين ، غير المفسدين فيها ولا الضالين (عبد العزيز فهمى ؛ هذه حياتى ، تقديم طاهر الطناحى ، كتاب الهلال ، ابريل ١٩٦٣ ؛ ص ١٢٩) ·

(١) فتحى رضوان ، مصطفى كامل ، سلسلة اقرأ رقم ٣٩٠ ؛ ص ٢٥٤ وما بعدها .

الشعب وتعاقدت خناصره اذ ألف الله بين قلوب أحزابه وطوائفه وأصبحوا بنعمة الله اخوانا • وكانوا على شفا حفرة من النار فانقذهم الله منها • أبصر فريد كيف نافس فى سبيل الوطن المفدى أطفال الأمة الشـــيوخ ونساؤها الرجال ، ومسيحيوها المســلمين وكيف تعانق الهلال والصليب ، والتقى القرآن والانجيل ، وتعانق الشيخ والقسيس » •

وحين رشح الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه لأول انتخابات برلمان فى سنة ١٩٢٣ ، جاء لنصرة الشيخ جندى (بك) ابراهيم صاحب جريدة الوطن الذى كان أول من حمل عليه سنة ١٩٠٨ ورماه بتهمة التعصب • وكتب صاحب الوطن مقالا طويلا فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٣ يؤيده ويدعو الى انتخابه (١) •

وحين كان بعض المؤلفين الأجانب يحاول تشويه صورة الحياة المصرية ، كان الكتاب المصريون يتصدون له • وكمثال لذلك نقد أحمد بهـاء الدين لرواية « رباعية الاسكندرية » التى حاول فيهـا لورنس داريل تقديم صورة مشوهة لمصر (٢) • والواقع ان تحامل الكتاب الأجانب - رحالة ورجال دين وسياسة ودراويش - عـلى مصر والأقباط خط متواصـل يستوقف النظر • ويحتاج الى تتبع ودراســة جادة • ان هـؤلاء الكتاب الأجانب لا يغفرون لمصر كيف واجهت باتحادها المخطط الغربى ووقفت صامدة أمام المد التبشيرى والاستعمار (٣) •

ولقد رفض الشعب المصرى بكل مكوناته الوجود الاستعمارى

---

(١) فتحى رضوان ، مشهورون ومنسيون ، كتاب اليوم ؛ اكتوبر ١٩٧٠ ؛ ص ٤١ - ٤٥ •

(٢) أحمد بهاء الدين ؛ رواية غريبة ، أخبار اليوم ١٩٦٠/١٢/٣١ ، أفكار معاصرة ، كتاب الهلال ابريل ١٩٧٠ ، ص ٢٣٥ وما بعدها •

(٣) وليم سليمان ؛ بحثا عن دور رائد للكنيسة القبطية ، الأهرام ٢٥ يوليو ١٩٧٥ •

على أرضه وأصبحت مقاومة الأقباط والمسلمين للانجليز مثلا تقليديا للكفاح الوطنى الشعبى الموحد الذى نجح فى اجبار المحتل على الجلاء . كما ان الشعب الموحد قضى على كل المشروعات التى كانت تهدف الى التفرقة بين صفوفهم على أساس الدين ولم يرتض قط ان تضمن التعايش بين مكوناته وثيقة تصدر من دولة أجنبية أو هيئة دولية أو حتى أن يوضع شكل تنظيمى داخلى لهذه الحياة المشتركة .

تضمن مشروع كيرزون عام ١٩٢١ فى الفصل العاشر منه نصوصا بشأن حماية الاقليات ولكن المشروع سقط . وقطعت المفاوضات ورفض المشروع ، ويذكر البرت حورانى ان أية حكومة مصرية لم تقدم أى تعهد يتعلق بالأقليات فى أية وثيقة من الوثائق الدولية وأتت معاهدة ١٩٣٦ خالية من أية اشارة الى هذا الأمر .

وكان فى تصريح ٢٨فبراير ١٩٢٢ تحفظ خاص بحماية الأقليات ـ حاول الانجليز فيه ربط وجودهم بمصر بهذا التحفظ . الا أن الوحدة الوطنية فى مصر أسقطت هذا التحفظ واضطرت بريطانيا أن تعلن تنازلها عنه فى مشروع المعاهدة الذى عده محمد محمود وهندرسون فى صيف عام ١٩٢٩ ، وصيغ التنازل فى صورة مذكرة بريطانية موجهة الى رئيس وزراء مصر جاء فيها « انه من المسلم به ان هذه المسألة تكون فى المستقبل من شئون الحكومة المصرية وحدها (١) .

ولقد دخلت مصر عصبة الأمم فى عام ١٩٣٧ دولة يعترف المجتمع الدولى كله بنضجها ووحدة شعبها ـ دون أى تعهد بالحفاظ

---

(١) طارق البشرى ؛ مصر الحديثة بين أحمد والمسيح ، مجلة الكاتب ، يونيو ١٩٧٠ ص ١١٣ ومابعدها ، وابريل ١٩٧١ ، ص ١٦٢ .
عبد العظيم رمضان ؛ تطور الحركة الوطنية فى مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٧٠٤ .

على حقوق الأقليات الاسلامية وغير الاسلامية كما حدث بالنسبة لبلاد أخرى (١) ٠

بل ان الأقباط أنفسهم رفضوا أن ينص دستور ١٩٢٣ على أن يكون التمثيل داخل البرلمان نسبيا ــ معتمدين على ان الوحدة الوطنية ومبادىء الحرية والمساواة التى تضمنها الدستور والحياة الديمقراطية السليمة ــ هذا كله هو وحده الكفيل بأن يحقق للشعب كله التمثيل النيابى الصالح والكافى ٠ وكان اختيار الشعب المصرى هنا هو الاختيار الأسلم والأضمن ٠ ونظرة واحدة الى ما يحدث فى بلاد أخرى لم تقم نظامها الدستورى على هذا الأساس تؤكد سلامة الاختيار المصرى ٠

ولقد تتبع طارق البشرى فى دراسات أصيلة وممتازة (٢) خيوط « الامتزاج بين العنصرين الدينيين لبناء الدولة الحديثة » فى مصر ٠ وخلص من ذلك الى أن خبرة القرنين التاسع عشر والعشرين فى هذا المجال تتمثل فى ان « الامتزاج كان يسير بخطى سريعة بقدر ما بين مؤسسات الدولة على قاعدة الوطنية ثم على الأساس الزمنى العلمانى ٠٠٠ وكانت الوحدة الوطنية رهينة بالفهم العلمانى للأمة وبالتحقيق الفعلى لهذا الفهم من خلال المبادىء الديمقراطية (٣) ٠

كانت السياسة البريطانية تجهد ــ كما صنعت فى الهند ــ الى « تقوية الانتماء الدينى ٠٠٠ باعتباره رابطة سياسية ٠٠٠ فكان لابد من تفتيت الجماعة الوطنية المصرية الى جماعات صغيرة لايربطها

---

(١) F.P. Walters, A History of the League of Nations, vol. II, Oxford University Press, London, 1952, p. 574.

(٢) مصر الحديثة بين أحمد والمسيح ؛ مجلة الكاتب ، فبراير وأبريل ويونية وأكتوبر ١٩٧٠ وفبراير وأبريل ١٩٧١ ويناير ١٩٧٣ واغسطس وأكتوبر ١٩٧٤ ٠

(٣) طارق البشرى ، يونيه ١٩٧٠ ، ص ١١٣ ٠

رباط واحد وكان لابد لكرومر .. أن يعمل جهده لتجريد الحركة الوطنية المصريه من مضمونها الوطني القومي .. وذلك كله بقصد اخفاء حقيقه الصراع بين الحركه الوطنيه والاستعارة بتصويره كصراع ديني لا سياسي .. » (١)

وقد خصص الدارس جزءا كبيرا من القسم الرابع في دراسته(٢) لبيان اثر الوفد في بناء الوحدة الوطنية . فاذا قيل بحق ان قوة التماسك بين المصريين رغم تكوينهم الديني المتعدد ، وان امتزاجهم التاريخي الطويل هو سبب النجاح . وان اشتراك القبط والمسلمين في سائر الطبقات الاجتماعية في المدن والقرى هو الأساس الموضوعي له ، فان من الحق أيضا ان كان للجهد الواعي المنظم للتنظيم السياسي فاعليته في تأكيد التماسك والامتزاج وفي انضاج الاسس الموضوعية القائمة . سيما وان كان هناك جهد واع منظم يعمل على فعل النقيض ، وليس في التاريخ حتميات خارجية عن جهد البشر تسقط من خارجهم أو تستعصى بذاتها عليهم . وكان حماس الجماهير وترابطها خليقا بألا يدوم ، ويمكن أن تعصف به العواصف ازاء الجهد الواعي لأعداء الثورة ــ وذلك ما لم توجد المؤسسة السياسية المستنيرة المدركة لأسس توحيد الجماعة المصرية ولموجبات هذا التوحيد ، والحذرة من مؤامرات أعدائها والقادرة على مواجهتها . وكان الوفد هو هذه المؤسسة . » .

ثم يوضح طارق البشرى تكوين الوفد ذاته كمؤسسة سياسية مبنية على نسيج مصرى جامع من القاعدة الى القيادة . « وكان هذا برهانا ناصع الدلالة على أن التكوين العلماني للوفد كتنظيم ومؤسسة سياسية كان واقعا فعليا . وان المصرية الجامعة كانت نسيجه الفعلي .. كان الوفد مؤسسة الاستقلال ، وهو ذاته المؤسسة العلمانية الجامعة . وكان يمثل مصر المستقلة الديمقراطية ويجسد قوة

---

(١) المرجع السابق .

(٢) أكتوبر ١٩٧٠ .

« مصر للمصريين » بتكوينها الفعلى . فتلاشى كل حذو بعد أن ظهر التجمع الوطنى كحقيقة ملموسة وسقطت دعاوى الانجليز حول التفرقة والتعصب والتشكيك فى مستقبل العلاقات بين القبط والمسلمين ـ سقط ذلك ، لا أمام وعد مستقبل ، ولا أمام نظرية تؤيد أو كلام يتدفق فى الصحف وعلى منابر الخطابة ، أو سياسة ترسم ولكن أمام الحقيقة الملموسة ، وهى ان حزب الاستقلال والحرية علمانى ومصرى جامع ، وهو ذاته نواة الدولة المستقلة الديمقراطية. وهو ذاته مادة هذا البناء برجاله وتنظيماته وأذكاره وعلاقاته وتقاليد نشاطه » .

ولقد أشرنا من قبل الى سقوط اقتراح التمثيل النسبى أساسا للحياة البرلمانية فى مصر . هنا تظهر فاعلية التنظيم السياسى ...

فاذا كان قد ظهر مقدار قوة الحركة المعارضة للتمثيل النسبى « فمن السهل ملاحظة وقفة الوفد وراءها ونشاط رجاله فيها وخاصة قبطهم . ولا شك ان قسما هاما ممن رفض التمثيل الطائفى على اسس وطنية و علمانية كان يصدر عن الثقة فى مستقبل ما بعد ١٩١٩ وهو مستقبل يستحيل على الوطنى أن يتخيله وقتها ، بغير الوفد ، حزب الثورة والمستقبل . وتعلقت بالوفد أهداف التحرر ، وأهداف العلمانية والتحضر أيضا ... وقد كانت هذه الثقة تلقى على الوفد كمؤسسة سياسية وعلى الاتجاه العلمانى كتيار فكرى ـ تلقى عليهما عبء السير بالمسألتين الوطنية والعلمانية فى طريق التحقيق الكامل لأهدافهما .. لقد كان الانتصار برفض (التمثيل النسبى) تعنى من طلائع المطالبين (بهذا الرفض) وعدا بتحقيق هذا الهدف فى مواجهة سياسة الاحتلال وحلفائه المصريين من الناحية الوطنية ، وفى مواجهة الرواسب الاجتماعية والفكرية الدينية من الناحية العلمانية » . (١)

(١) طارق البشرى ؛ فبراير ١٩٧١ ، ص ١٢٥

كيف جرى تحقيق هذه المبادىء فى الواقع ؟

الحقيقة ان هذه الانجازات الديمقراطيه فى الحياة السياسية المصريه لم تكن نهايه المطاف - انما كان يقتضى الامر ان يختبر الانتصار والثقه به فى التطبيق العلمى الملموس سيما فى المعارك الانتخابية (١) • وكانت هذه المعارك هى « مجال الفحص الاجتماعى للموقف الجماهيرى العام فى الدوائر المختلفه بالنسبه لمدى تأثرها بالعامل الدينى فى اختيارها السياسى لممثليها فى المجالس النيابية » ولقد دخل الوفد المعركه الانتخابيه الأولى عام ١٩٢٤ على أساس سياسى بينما أعد الأحرار الدستوريون خطتهم على أساس ما يتمتع به أنصارهم من عصبية عائلية فى أقاليمهم ، أو مصالح مادية باعتبار أن غالبية هؤلاء الأنصار من صفوة أصحاب الملكيات الزراعية فى الريف • وقد جرت انتخابات ١٩٢٤ وانتصر الوفد انتصارا ساحقا ونجح من رشحهم أو من انضموا اليه جميعا - مسلمين كانوا أو أقباطا • ولم يظفر الأحرار الا بستة مقاعد • والحزب الوطنى الا بأربعة كان الوفد يحرص على أن يتيح للشعب المصرى أن يختبر عمليا حياة الوحدة الوطنية • كان يرشح بعض رجاله فى دائرة بعيدة عن مجال روابطهم العائلية أو الاقليمية ، وعن روابطهم الدينية • وكان نجاح هؤلاء المرشحين يؤكد الطابع الوطنى العام لسياسته واستجابة الناخبين له وفقا للرابطة السياسية وحدها فمثلا كان ويصا واصف من أواسط الصعيد ولكنه يمثل دائرة المطرية دقهلية فى أقصى الشمال بغير عصبية عائلية له ولا روابط دينية ولا محلية فى هذه الدائرة بل ليس فيها قبطى عداه • وفى انتخابات ١٩٢٥ نجح مرشح الوفد بطرس حكيم فى دائرة المراغة • ويقال ان سعدا كان حريصا على ذلك ليؤكد الطابع الوطنى الخالص من مشاعر التفرقة الدينية والعصبية العائلية فى بلد أسرة الشيخ

(١) طارق البشرى ، ابريل ١٩٧١

المراغى . واعتاد الوفد أن يرشح فى دائرة الدلنجات بالبحيرة غالى ابراهيم وهو ليس من أهل الدائرة ، والدائرة موطن لقبائل بدو عربية حديثة التوطن . وكان ينجح فى الانتخابات .

هذه البيانات أوردها طارق البشرى فى دراسته المتأنية . وقد تابع حصيلة الانتخابات العشرة التى جرت فى مصر منذ ١٩٢٤ الى ١٩٥٠ . والنتيجة التى تستخلص من هذه الدراسة ان قضية الوحدة الوطنية ارتبطت بقضية الديمقراطية ارتباطا لا فكاك منه . فحين كانت الانتخابات تجرى فى حرية ويفوز فيها الحزب الذى يتمتع حقيقة بتأييد الجماهير كان التمثيل يتضمن وجودا بالغ الوضوح . هذا الوجود كان يتناقص مع ضعف الحياة الديمقراطية وتحكم أحزاب الأقلية وتزوير الانتخابات التى تفرض على الارادة الشعبية من لا يمثلونها . وبكلمة واحدة : نجحت التجربة المصرية .

ولكن الحياة المشتركة ليست وجودا جامدا بل هى حركة تواصل مسارها . والمرحلة التالية من الحركة تستوعب سابقتها ، وتجاوزها الى هدف جديد أكثر تقدما .

فمع تأكد الوحدة الوطنية ، وانجاز التحرر الوطنى فى مواجهة الاستعمار ، برز الجانب الاجتماعى هنا تتحول « الوحدة الوطنية » الى « **وحدة قوى الشعب العاملة** » وهى مرحلة تستوعب كل انجازات المرحلة السابقة وتستند اليها ، وبدونها ما كان يمكن لها أن تظهر ويصبح « للأغلبية » و « للأقلية » و « النضال الوطنى » معان سياسية جديدة تتخذ الملكية والقضية الاجتماعية أساسا لتحديدها .

يقول الميثاق :

« ان **الوحدة الوطنية** يصنعها تحالف هذه القـــوى الممثلة للشعب » - وحدة قوى الشعب العاملة ·

« ان التنظيمات الشعبية السياسية التى تقوم بالانتخـــاب الحر المباشر لابد لها أن تمثل - بحق وبعدل - القوى المكونة للأغلبية ، وهى القوى التى طال استغلالها والتى هى صاحبة مصلحة عميقة فى الثورة ·· ان ذلك فضلا عما فيه من حق وعدل باعتباره تمثيلا **للأغلبية** - ضمان كيد لقوة الدفـــع الثورى - نابعة من مصادرها الأصلية » (١) ·

« ان النضال الوطنى لجماهير الشعب هو الذى صنع نـــواة القطاع العام ·· كذلك فان النضال الوطنى ·· أضاف لهذا القطاع العام كل الاموال البريطانية والفرنسية فى مصر ·· كذلك فان النضال الوطنى ·· هو الذى ضم الى هذا القطاع العام الجزء الأكبر من أدوات الانتاج وذلك بقوانين يوليو ١٩٦١ ···

« ان وصول القوى المحركة الى كل مكان فى مصر هو شرارة الثورة القادرة على تحريك طاقات التغيير الجذرى اقتصاديـــا واجتماعيا من التخلف الذى كان الى التقدم الذى يتطلع اليه النضال الوطنى ·· **ان العمل الوطنى** المنظم القائم على التخطيط العلمى هو طريق الغد ·· ان وعى كل مواطن بمسئوليته المحددة فى الخطـة الشاملة ··· هو ·· عملية انتقال ثورية بمعنى **العمل الوطنى** من العموميات الشائعة المبهمة والغامضة الى وضوح ذهنى وعملى يربط الانسان الفرد فى نضاله اليومى بحركة المجتمع كلها ويشده فى اتجاه التاريخ كما انه يوجه به حركة التاريخ فى نفس اللحظة » (٢)

(١) الباب الخامس ·

(٢) الباب السادس ·

هكذا نرى مراحل « النفى » أو « التجاوز » المتتابعة التى مر بها المجتمع فى مصر ـ رائدا للتطور فى اطار القومية العربية : فمن نظام الذمة ، الى نظام الملة ، ثم الى النظام الذى يقوم على المواطنة والمساواة والوحدة الوطنية والقومية العربية وصولا الى مرحلة التحول الاجتماعى نحو الاشتراكية ووحدة قوى الشعب العاملة ٠

كل مرحلة تستوعب ما سبقها وتتجاوزه ٠ وهى اذ تقوم بهذا « النفى » و « التجاوز » انما تعبر عن مدى النضج الذى وصل اليه المجتمع بما يكنه من مواصلة حركة التطور ٠ بحيث أن النكوص الى مرحلة سابقة يكون ردة وتخلفا وقطعا لطريق التطور السليم واهدارا لقدرات الشعب الثقافية والسياسية والاقتصادية ٠

ومثل أعظم الأعمال الحيوية التى تجرى فى الكيان العضوى ـ فى هدوء تتكرر خلال الساعة الواحدة عشرات المرات ومئاتها : التنفس والنبض والرؤية والسمع ٠٠ ولا يلتفت اليها الا فى لحظة الازمة ، هكذا فى الكيان العضوى الاجتماعى ، فى لحظة الازمة التفتت مصر الى ما يجرى فى أحشائها من نشاط حيوى رائع ومعجزى ، فالى جوار دراسات طارق البشرى التى تعتبر اضافة علمية عظيمة للتاريخ المصرى امتلأت الصحف والمجلات والكتب تتحدث عن الوحدة الوطنية على هذه الأرض (١) ٠

---

(١) هذه بعض الأمثلة : حسين مؤنس ، دور الأقباط فى ثورة ١٩١٩ ، آخر ساعة ، أربع حلقات ؛ من ٩ مايو ١٩٧٣ ٠ عبد العظيم رمضان ، تقرير هاملتون والشماتة الاستعمارية ، الاهرام ٤ ديسمبر ١٩٧٢ ٠ وليم سليمان ؛ الخط الهمايونى والواقع المصرى ، الاهرام ٤ ديسمبر ١٩٧٢ ٠ أحمد بهاء الدين التدين والتعصب والانسجام الوطنى فى مصر ، الأهرام ؛ ١٩ نوفمبر ١٩٧٢ ٠ الوحدة الوطنية ٠ لماذا وكيف ، أخبار اليوم ؛ ٢٩ يوليو ١٩٧٢

ونحن لا نجد تعبيرا مصريا عن الاعتزاز بكنيسة هذا البلد والحرص عليها بل على تقدمها أقوى مما تحدث به **رئيس الجمهورية أنور السادات** ، تعبيرا عن موقف مصرى ثابت - رسمى وشعبى . ففى أكتوبر ١٩٧٠ وأثناء زيارة البابا الراحل كيرلس السادس ، قال الرئيس :

« لقد قرأت تاريخ بلدى .. واليوم وفى حضور قداسة البابا أقول : لقد آن الاوان لكى تأخذ كنيسة الاسكندرية مكانتها كما كانت عبر التاريخ فى العالم المسيحى . لقد كانت منارة فى عالم المسيحية قبل كنائس كثيرة . انى أثق ان قداسة البابا يحمل فى عنقه هذه الرسالة وهو خير من يحملها ... (١) .

وعند وضع حجر الأساس فى الكاتدرائية المرقسية بالقاهرة فى ٢٤ يوليو ١٩٦٥ تحدث جمال عبد الناصر فقال :

« هذه الثورة قامت وهى تدعو للمساواة وتكافؤ الفرص والمحبة .. وتكافؤ الفرص من أول المبادىء التى نادت بها الاديان السماوية لأنها بالمحبة والمساواة وتكافؤ الفرص تستطيع أن تبنى المجتمع السليم .. ونادى الدين المسيحى والدين الاسلامى بالمساواة وتكافؤ الفرص . نادوا بالعمل من أجل الفقراء ومن أجل المساكين ومن أجل العاملين . استنكرت الأديان الاستغلال بكل معانيه .. والاستعباد بكل معانيه ... هذا مفهوم الثورة للديانة: بالمحبة ، بالمساواة ، بتكافؤ الفرص نستطيع أن نخلق الوطن القومى الذى لا يعرف للطائفة معنى ولا يحس بالطائفة أبدا بل يحس بالوطنية . الوطنية التى يشعر بها الجندى فى ميدان القتال . وكما قلت لكم فى أول الثورة حينما كنا فى فلسطين

---

(١) الاهرام ، ٣١ اكتوبر ١٩٧٠ .

سنة ٤٨ كان المسلم يسير جنبا الى جنب مع المسيحى ، ولم تكن رصاصة الأعداء تفرق بين المسلم والمسيحى · وحينما تعرضنا للعدوان سنة ١٩٥٦ وضربت بور سعيد ·· هل فرقت قنابل الأعداء بين المسلم والمسيحى ؟ ·· اننا جميعا بالنسبة لهم أبناء مصر لا تفريق بين مسلم ومسيحى ونحمد ونفخر والحمد لله ان بلدنا ليست فيها طائفية او تعصب أو انقسام ·· عايزين الكمال وعايزين الوحدة ·· عايزين الكمال وعايزين الوحدة الوطنية التى بنيت بالدم سنة ١٩١٩ وقبل سنة ١٩١٩ – تتدعم وتقوى · عايزين كل واحد فى بلدنا يثق بنفسه ويثق ان البلد بلده بلد المسلم وبلد المسيحى مائة فى المائة ·· كل واحد فينا له الفرصة المتساوية المتكافئة ·· الدولة لا تنظر والمجتمع لا ينظر الى الدين ، ولا ينظر الى الأب ولا ينظر الى الأصل ولكنه ينظر الى العمل والى الجهد والى الانتاج والى الأخلاق » ·

وحين عقد فى القاهرة اجتماع لجنة مجلس السلام العالمى قال خالد محى الدين فى حفل استقبالهم :

« ·· وتحية خالصة الى الكنيسة القبطية التى ظلت على الدوام واحدة من رموز الصمود المصرى ضد كل أشكال العدوان والاستعمار والتى ظلت على الدوام احدى دعائم الوحدة المصرية ضد العدو المشترك ·· » (١) ·

وحين أقيم البابا شنودة الثالث امتلأت الصحف المصرية ترحيبا به ، واشادة بالكنيسة القبطية واعتزازا بدورها الوطنى ، كنموذج لذلك ما نشرته مجلة الكاتب القاهرية (٢) ·

---

(١) وطنى ٢٨ ابريل ١٩٧٤ ·

(٢) ديسمبر ١٩٧١ ·

وجاءت معارك اكتوبر لتقدم تعبيرا جديدا عن الانجاز الحضارى المصرى العظيم • وعلى تراب الوطن سال دم الجنود المصريين جميعا •• ان اسم كل مقاتل فى هذه الملحمة جدير بأن يحفر فى قلب كل مصرى ، عميقا محاطا بأعمق مشاعر الحب والاعتزاز والتقدير • ولا يمكن أن ينسى المصريون قط مشاعرهم وهم يسمعون البلاغات التى كانت تصدر بأنباء القتال على أرض سيناء •• وكانت الحان المعركة أحلى الألحان •

ونشرت الصحف ضمن أحداث الحرب ، التى ابرزت للعالم مدى حب المصريين لكل ذرة من رمال بلادهم ، وبددت الى الأبد أسطورة التخلف الحضارى التى كانت تروج لها اسرائيل ضمانا لاستمرار تفوقها ـ نشرت صورا انسانية عظيمة لزمالة السلاح ووحدة الانسان المصرى فى أحرج اللحظات : قرأ العالم كله عن « معركة غريب وشنودة » (١) وعن الشهيد اللواء شفيق سدراك الذى استشهد يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣ وكان يتقدم قواته بمسافة كيلو متر داخل عمق بلغ مداه ما يقرب من ١٤ كيلو مترا فى سيناء (٢) • وعن المقاتل جورج الرجل الذى وضع العلم على خط بارليف (٣) وعن الأم المثالية الثانية فى جمهورية مصر ـ السيدة بهية جرجس يوسف والدة الشهيد الجندى بشارة نجيب الشرقاوى مقاتل سلاح الاشارة الذى جاد بحياته فى معركة انقطاع الاوسط بسيناء يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ (٤) •

وأعلن القائد العام للقوات المسلحة الفريق أول أحمد اسماعيل فى أكاديمية ناصر العسكرية العليا ان حرب أكتوبر أبرزت الوحدة

---

(١) المصور ، ٢٢ مارس سنة ١٩٧٤ •
(٢) المصور ، ٣١ مايو سنة ١٩٧٤ •
(٣) صباح الخير ، ٨ نوفمبر سنة ١٩٧٣ •
(٤) المصور ، ٢٩ مارس سنة ١٩٧٤ ، والاهرام والاخبار ، ٢٢ مارس ١٩٧٤

الوطنية في مصر بصورة كاملة متكاملة لا شرخ فيها ولا عيب (١) .

وأثناء جلسات الاستماع في مجلس الشعب لمناقشة تعمير مدن القناة وسيناء ، طالب الشيخ صالح محمود من بور سعيد بأن يبنى عند مدخل القناة مسجد وكنيسة تعبيرا عن تسامح الاديان وتلاحم الأمة في الكفاح والنضال (٢) .

ونشرت مجلة « منبر الاسلام » مقالا عن « الوحدة الوطنية » بقلم فضيلة الشيخ فراج أحمد دردير ، قال فيه :

« أجول بنظرى في ربوع هذا الوادى ، امصاره ودساكره ، مصانعه ومتاجره فلا تقع عينى الا على مسلم أو مسيحى ، وكل منهما يتبع رسولا جاء بالهدى والرشاد يحمل كتابا أنزل عليه من رب العباد فيه هدى ونور ، وارشاد وتذكير ، لقد عصم الله أرضى أن تحمل أديانا متنافرة أو عقائد متضاربة » (٣) وتردد صدى الوحدة الوطنية في الأعمال الأدبية . وعلى سبيل المثال كتب عبد الرحمن الشرقاوى مسرحيته الشعرية « النسر الأحمر » فيها يبرز كيف ان غبار المعركة في حطين انقشع ليكشف عن وحدة العرب المسلمين والأقباط ضد الصليبيين (٤) . وحتى مجلات الأطفال نشرت مجلة « ميكى » قصة بطلها طيار مصرى اسمه البيرمترى (٥) .

---

(١) الأهرام : ١٠ يناير سنة ١٩٧٤ .

(٢) الأهرام والأخبار ، ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٧٣ . وانظر ما كتبته مجلة العربى الكويتية : فبراير ١٩٦٤ .

(٣) منبر الاسلام ، صفر ١٣٩٤ : فبراير ١٩٧٤ ص ٢٥ .

(٤) انظر أعداد مجلة روز اليوسف خلال شهرى نوفمبر وديسمبر ١٩٧٤ .

(٥) عدد عن « بطولات اكتوبر » بمناسبة الذكرى الأولى .

ونلاحظ أن المناخ العام في المنطقة ، وكما سبق أن أشرنا الى ذلك يتسم بالتسامح والتعايش والتعاون ، وقد سجلت الآداب الشعبية التى أفرزتها الشعوب في منطقة الشرق الاوسط من طموح لتحقيق هذا الهدف الانسانى . ففى دراسة علمية ممتازة ، قدمت د . نبيلة ابراهيم صورة للوجدان الشعبى في المنطقة من خلال ما حفظته الذاكرة الجماهيرية من الآداب الشعبية . فبعد =

وفى افتتاحية مجلة « مرقس » ديسمبر ١٩٧٣ تقرأ بعنوان « البصخة أو العبور »

« البصخة » كلمة عبرية تعنى « العبور » وردت فى سفر الخروج ؛ فى العهد القديم بمناسبة خروج بنى اسرائيل من مصر وعبورهم البحر الأحمر •

« وككل شىء فى العهد القديم فهمت المسيحية « البصخة » أو « العبور » الذى تم أيام موسى النبى على أنه رمز ، يشير الى حقيقة أرفع وأعمق •

« العبور فى المسيحية هو تجاوز الانسان لمرحلة كى يدخل الى مرحلة جديدة يكون فيها أكبر قدرة ، وأكثر فهما ، وأنضج وعيا • فيها يكتسب قدرة وفهما ووعيا يعلو به عما كان فى السابق • ونموذج العبور فى المسيحية هو المسيح نفسه ، لقد مات وبموته

= متابعة متأنية ومقارنة للأدب الشعبى والبيزنطى ؛ خلصت الدارسة الى أن الشعبين العربى والبيزنطى عانيا الكثير نتيجة لمشكلات داخلية وخارجية متشابهة فليس غريبا أن يعبر كل شعب عن رغباته وآماله بل يحققها فى أدبه اذا كان قد يئس من تحقيقها فى الواقع • وقد حدث ذلك اذ تحقق فى القصص الشعبية اقرار السلام والهدوء بعد أن أخمد الشعبان الحروب المستعمرة فى منطقة الحدود وقضيا على المتمردين وقطاع الطرق وعلى القوى المنافقة التى تدعمها كل عناصر الضعف والفساد . ثم تسجل المؤلفة ان هناك ظاهرة تستدعى النظر وهى الحرص على أن يكون البطل الذى يحقق النصر فى النهاية يجمع بين الجنسين العربى والرومى . يحدث هذا سواء فى الملاحم الشعبية العربية أو البيزنطية . ومثل هذا البطل يجسد التئام الشعوب واتحادها (انظر د . نبيلة ابراهيم ، سيرة الاميرة ذات الهمة ، دراسة مقارنة ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، ص ٢٢٢ وما بعدها) .

ان هذه التطلعات التى تجهد شعوب المنطقة فى تحقيقها انطلاقا من المناخ السائد فيها فتعمد الى صياغتها ملاحم وأساطير شعبية ـ هذه التطلعات تصل الى تحقيقها العملى الواقعى على أرض مصر الطيبة • فيجسد كل ابن لمصر وحدة شعبها فى مواجهة العدوان الخارجى والظلم الداخلى .

مات القديم الضعيف العاجز . ولكنه قام ، وبقيامته ثم صعوده حقق الانسان فيه العبور الى المرحلة الجديدة .

« ولكن عبور القديم الى الجديد لا يتم في لحظة من الزمان ـ لا يتحقق في مرة واحدة . بل الانسان دائم الانسلاخ . يضيق عليه جلده الذى تحجر حول جسمه وعقله وروحه ، فيئن كى يولد من جديد من هذا الرحم الذى صار ضيقا . ويظل يجاهد هذا القديم حتى يتجاوزه ويعبر الى الحرية والاتساع والنور .

«ومع استمرار الحياة يحس الانسان بأن انجازه السابق بدأ يتخلف ـ ومن جديد تبدأ المعاناة ، ثم تتحقق الولادة الجديدة ، ويختبر الانسان مرة أخرى دهشة الطفل وانبهار الحياة .

« هذا هو طريق التقدم . العبور فيه دائم متصل ، وكل عبور هو ختام لمرحلة سابقة وتتويج لجهد بذل لتجاوزها ـ ولكنه أيضا تمهيد للعبور الآتى .

« ولا نهاية لطريق التقدم .. فالانسان عابر دائم .

« ولقد نظمت الكنيسة القبطية ضمن ترتيبها الطقسى السنوى أسبوعا فى كل عام للتأمل فى هذه المفاهيم . انه أسبوع العبور أو أسبوع « البصخة » بالتعبير الطقسى الكنسى .

« هو أعمق فترات العبادة فى العام كله . تستمر الصلاة فيه من الصباح الى المساء ويركز المصلون تفكيرهم ومشاعرهم فى « البصخة » كى يتعمقوا فن العبور ومنهج تجاوز الماضى وكيفية الولادة الجديدة الدائمة .

« هو أيضا يسمى « أسبوع الآلام » ـ لأنها آلام المسيح وصلبه . وهى أيضا أيام آلام الانسان اذ يميت القديم كى يحيا كمولود جديد ثانية .

« وينتهى « أسبوع الآلام » بعيد قيامة المسيح : هنا تكتمل « البصخة » ويتوج جهد الانسان • لقد قام ـ عبر ـ من الموت الى الحياة ، ومن الضعف الى القوة ، ومن الجهل الى المعرفة ، ومن التخلف الى التقدم •

« مصر حققت « بصخة » أو « عبورا » يوم ٦ أكتوبر •

« ولكن الحواجز والخطوط ما زالت أمامها • حاجزا وراء آخر • ومن يتأمل حياة شعبنا وتفكيره ، يدرك مدى احتياجه الى تحقيق مزيد من العبور •

« النموذج الذى يقدمه طقس الكنيسة القبطية هنا صالح ومفيد : التأمل المستمر السنوى ، فى معنى العبور وأساليب استمراره •

« فليكن ٦ أكتوبر هو العبور الأول تنجزه مصر • ولنواصل التأمل فى كيفية تحقيق تجاوز باقى الحواجز وهزيمة خطوط التخلف •

« ان العبور الدائم » ـ الولادة الجديدة المستمرة ، التقدم هذا كله هو منهج شعب مصر الآن •

« ان مصر تحس هذه الأيام بدهشة الطفل وانبهار الحياة الجديدة التى انطلق اليها • ولن تكون هناك ردة الى الماضى الذى شاخ ومات ودفن فى رمال الصحراء •

« مصر تحقق القيامة من التخلف • كى تمارس حياة جديدة ، فيها قدرة أكبر ووعى أنضج وأعمق •

« عبور ٦ أكتوبر هو تتويج لجهد ومعاناة وآلام ولكنه تمهيد لعبور آت ومتكرر ، يفتح مزيدا من آفاق التطور والتقدم لبلادنا » •

ثالثا : الخبرة المصرية فى مؤتمر قرطبة

وكان لابد مع موجة الحوار بين الأديان التى أخذت تمتد فى السنوات الأخيرة على النحو الذى سبق أن أوضحناه ـ كان لابد أن تبرز الخبرة المصرية نموذجا رائدا (١) ٠

ولقد كان مؤتمر قرطبة هو المناسبة التى قدمت فيها التجربة المصرية الى العالم فى وضوح ، وعرض مفهومها عن الحوار بين الأديان من خلال الحياة المشتركة ٠

---

(١) فى عام ١٩٦٥ زار مصر الكردينال فرنزيسكوس كوينج رئيس أساقفه فينا (النمسا) والقى بجامعة الازهر خطابا فى ٣١ مارس ١٩٦٥ عن « التوحيد فى العالم المعاصر » ودعا الى أن يلتقى الاسلام والمسيحية على أسلوب جديد ٠ والحديث هنا نابع من تجربة الغرب المسيحى مع الاسلام ٠ وقد علق على ذلك وليم سليمان وطلب ابراز تجربة اللقاء بين الدينين « على أرض المحبة والتقدم » وتعميق التجربة المصرية فكريا ٠ انظر مقال « اسرائيل وأمريكا وسلاح الدين » مجلة « المجلة » أغسطس ١٩٦٧ ص ٢٢ ٠

عقد هذا المؤتمر باسبانيا خلال المدة من ١٠ - ١٥ سبتمبر ١٩٧٤ • وحضره وفود وأشخاص ينتمون الى ثلاث وعشرين دولة اسلامية ومسيحية • وكانت أهم الموضوعات التى طرحت للبحث هى « تقديم مسيحى للديانة الاسلامية فى صورة تمكن المسلم من رؤية نفسه فيها » و « تقديم اسلامى للديانة المسيحية فى صورة تمكن المسيحى من رؤية نفسه فيها » •

وقد نوه الرئيس أنور السادات فى رسالته بالتعاون من أجل الفهم والسلام :

« فى عالمنا هذا الذى يزداد فيه الاتصال بين الشعوب والأديان والحضارات واستطاع العلم فيه أن يزيل حواجز العزلة الاقليمية ، ووصلت رحلات الانسان الى الفضاء الخارجى - نجد أنفسنا فى حاجة الى رحلات أخرى داخل عقولنا وقلوبنا تكشف فيها عن آفاق جديدة رحيمة من السماحة والأخوة ويفهم من خلالها - كل منا - ما عند أخيه • والفهم أول طريق السلام »

ثم يتحدث عن التجربة المصرية :

« ونحن فى مصر وفى عالمنا العربى والاسلامى تفتحت أعيننا على السماحة والأخوة • وهما عندنا من أمر الدين وأسلوب الحياة• فى بلادنا ترتفع المآذن وأبراج الكنائس ، ويلتقى الشيخ بالقس ، ويتلقى أبناؤنا العلم فى المدارس والجامعات من أساتذتهم مسلمين ومسيحيين فى ظل وحدة وطنية ومحبة • ويخوضون المعارك معا من أجل استرداد أرضهم المغتصبة وعروبة القدس الشريف • ويقدمون أرواحهم فى ساحة الشرف ، وتمتزج على أرضها دماؤهم •• تعرف عيونهم دمعة الحزن النبيلة على شهيد ، وفرحة النصر بما حققوا من انجازات فى معارك التحرير والتعمير • ولهم فى المؤتمرات

الدولية اسلامية ومسيحية وعالمية صوت واحد هو ادانة الظلم حيث كان والوقوف الى جوار الحق .. والعمل الدائب من أجل السلام القائم على العدل . ».

وهذا ما أبرزه د . عبد العزيز كامل فى كلمته أمام المؤتمر : (١)

« لقد جئت اليكم من أرض السلام والمحبه .. من مصر .. مصر المؤمنة التى دأبت من أقدم عصور حياتها على أن تتخذ الى الله سبيلا .. ومرت قرون وقرون ، ومصر - وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس - تقدم نموذج الاخاء والمحبة الذى تحاول جاهدة أن تزيل ما يعلق به من غبار الحياة ، وما قد يحاول حجب صونه من تصرفات - لا يلبث تيار السماحة أن يزيلها كما يزيل النيل عقبات مجراه ، ويلتقى الكل حول سماحتهم كما يلتقون على ضفاف نهرهم : الايمان غذاء لأرواحهم ، وبه تخضر الأرض وتزدهر . وكما أقاموا سدا عاليا ينظم ماء النهر عند أسوان ، أقاموا سدا عاليا من السماحة والمحبة فى كل قلب ، تسير به الحياة وتتدفق » .

وأورد الدكتور عبد العزيز كامل ما حدث فى حرب أكتوبر .. ثم قال : « هذا هو الجو النفسى والحضارى الذى نعيش به فى ديارنا والذى جئنا اليكم به » .

وفى تقديمه الاسلامى للمسيحية ، تحدث عن وحدة رسالة الانبياء وعن الحب الذى يدعو اليه الاسلام والمسيحية ، والربط بين الكلمة والعمل ، وزيادة الانتاج وعدالة التوزيع ،وتوفير المعرفة . ثم تحدث عن موطن المسيح والأنبياء .

وكان حديث الأستاذ البرت برسوم سلامة الى المؤتمر تعبيرا

---

(١) وطنى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٤ .

آخر عن الخبرة المصرية • وفى تقديمه المسيحى للديانة الاسلامية تحدث عن توحيد الله فى الدينين وأثر هـذا التوحيد فى مختلف نواحى الحياة العقائدية والاخلاقية والاجتماعية • وقال ان الطريق الذى رسمه الانجيل والقرآن للانسان لينتهى به الى الايمان والحرية يقوم أساسا على العلم وأوضح كيف أسهم الاسلام فى تراث البشرية الحضارى •

وعرض الانبا صموئيل مجالات التعاون بين الدينين •

ولم يكن مؤتمر قرطبة مماثلا لمؤتمرات الحوار المجرد بين الاديان بل تضمنت قراراته عدة مواقف عملية • فعلاوة على التعاون فى الميادين الفكرية قرر المؤتمر «تأكيد الحقوق الوطنية والانسانية للشعب الفلسطينى مع اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد لهذا الشعب • وتأكيد عروبـــة القدس ورفض مشروعات التهويد والتقسيم والتدويل • وادانة الاعتداءات التى تقوم بها سلطات الاحتلال الاسرائيلى على الشعوب وعلى المقدســات الاسلامية والمسيحية وبخاصة المسجد الاقصى • والمطالبة باطلاق سراح جميع المعتقلين لا سيما رجال الدين الاسلامى والمسيحى وتأييد النضال العادل للشعب الفلسطينى والمطالبة بتحــريــر الأراضى العربية المحتلة •

هذا ويرقب الدكتور عبد العزيز كامل منذ عدة سنوات مؤتمرات الحوار بين الاديان التي تقوم بها المنظمات العالمية •ولديه أنه « من الخطر أن ننعزل عن التجارب الدينية ـ اسلامية وغـــير اسلامية ـ وأن نعيش فى كهف من تجاربنا الخاصة ، تأنس فيه بظلالنا على الحوائط ، ونسعد فيه بأصداء أصواتنا ، ونكرر فيـه

قولا معادا – بينما القرآن يدعونا الى السير فى الارض ودراسة الانفس والآفاق ، والانفتاح والتفكر » .

ويتساءل بحق :

« كيف تعمل المنظمات اليهودية أو الصهيونية ؟ وكيف استطاعت أن تصيب المنظمات الاسلامية والمسيحية بالشلل ، أو ما يشبه الشلل – أمام قضية القدس الشريف وفيها مقدسات الاسلام والمسيحية » .

ثم يوضح الطريق :

« هنا يكمن التحدى الكبير لجميع المنظمات الاسلامية بل وللمنظمات المسيحية ، ولها جراحها فى الارض السلبية ودماء من أبنائها مراقة فى ساحة المعركة » (١) .

ثم بعد ذلك بحوالى عامين يواصل الدعوة :

« ما تقوم به اسرائيل والصهيونية العالمية من محاولة للتأثير على العالم المسيحى وجذب قطاعات منه الى صفهم أمر منشور وينبغى أن ندرسه بغير حساسيات . ولا زال العمل الاسلامى قاصرا فى هذا المجال .. قاصرا مع أن الاسلام يمجد المسيح عليه السلام ومريم العذراء البتول ويؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى ويحترم دور العبادة ويفتحها للعاكفين والعابدين . وهناك جهود محدودة على الصعيد العربى واخاء طيب وتعاون فى المؤتمرات الدولية . ولكن الأمر ينبغى أن يأخذ صورة أوسع وأكثر تنظيما . واذا كانت الكنائس الكبرى قد خصصت أقساما للاتصال بغير المسيحيين ، واسرائيل بدورها

---

(١) عطاء الدين للمجتمع .. قضية عالمية مطروحة ، الاهرام ١٨ ابريل سنة ١٩٧٢ .

تقوم بجهد فى هذا المجال ٠٠ أفلا ينبغى علينا أن ننظم هذا الأمر على الصعيد العالمى ، وقد أصبح الحوار صيغة عالمية ٠٠ » (١)

وفى مواجهة الحوار ، ينطلق الدكتور عبد العزيز كامل من الخبرة العربية ــ والمصرية بالذات (٢) ٠ ويذكر فى هذا المجـــال

---

(١) الاهرام أمامكم هجرة ، ٢٤ يناير ١٩٧٤ ٠

(٢) يروى د٠ عبد العـزيز كامل من ذكريات صـــباه مايكشف عن الحياة اليومية الشعبية فى مصر ٠ يقول انه « فى حى راغب باشـا (بالاسـكندرية) تتجاور الأسر الاسـلامية والمسيحية ٠ وغـير بعيـد منـا كانت أسرة مسيحية ، كبيرها موظف فى جمعية قبطية فى الحى ٠ نتعاون فى المذاكرة ٠٠ علوم اللغـة العربية واللغات والمواد الاجتماعية فى منزلنا وجانبه من الرياضيات فى منزلهم ٠ وكان فى الحى أكثر من كنيسة لأكثر من مذهب ٠ وكنا ننظـر الى هـذا كله فى طفولتنا بسماحة ٠ وفى المدرسة نتنافس معا ونلعب معا ٠ وفى البيت نتذاكر معا = ومازلت أحتفظ ببعض هـذه الصـداقات التى شـاءت ظروف الجوار أن تضم شملنا بعد أن فرقتنا رحلة التعليم فى مسالك شـتى ٠ كنـا نختلف أحيـانا ونتشاجر ٠ ولكن الود بيننا كان قويا ٠ وكنا نذهب مع صديقنا المسيحى أحيانا الى جمعية الشبات لنرى بعض العروض السينمائية وكانوا يشاركوننا الفرحة والحزن فى مناسباتنا ٠ واذكر مرة وأنا فى المدرسة الثانوية دخلنا فى نقاش دينى٠ كنا نقرأ كثيرا وبخاصـــة فى عطله الصيف ٠ وكانت فترة التفتح على الاتجاهات والتيارات حولنا من سياسية ودينيـة ٠ وارتفع مرة نقاشـنا فى البيت وقت المذاكرة ــ فماكان من أكبرنا وكان عريفا لنا فى المذاكرة أنهى دراسته الثانوية ودخل الحياة العامة ، الا أن قال : «أنتم أصدقاء ؛ تذاكرون معا ٠ لا هو سيزيد المسلمين اذا أسلم ، ولا أنتم تزيدون المسيحيين ٠ انتم تذهبون الى المسجد ٠ زميلكم مواظب على الكنيسة وشماس فيها واسرته متدينة ٠ تذاكرون هنا وتذاكرون هناك ٠ يأكل معكم كعك العيد وتأكلون عنده طعام الصيام ــ وبعد ذلك يرتفع صـوتكم هكذا ٠ دعوا هذا النقاش ولا تعودوا اليه واعطونى كلمة شرف وتفـرغوا لمذاكرتكم ، والا حرمناكم من المذاكرة معا ٠ وكنا أصـدقاء متحـابين فاعطينـاه كلمتنا واحتفظنا بصداقتنا ٠ « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ٠ الهلال مارس ١٩٧٤ ص ١٠ ٠

الحروب الصليبيه (١) وماحدث فى معارك أكتوبر المجيدة (٢) .

ومن خبرة الماضى ، ينطلق الدكتور عبد العزيز كامل الى واقع الحاضر وهو يرى فى كل ما يجىء به الدين دعوة الى التقدم فى الحياة الواقعية . فما تضمنه الاسراء والمعراج من رؤى كأن « مشاهد توضيح وتربية الفرد على الايمان والعمل ، وتربية الاسرة على العفة ، واقامة المجتمع على الحق والعدل ومحاربه كل أنواع الاستغلال ـ استغلال لليتيم والمحتاج والضعيف . بذلك لم يكن المعراج بعدا عن الارض وانما كان ارتفاعا بالحياة ، وعونا على معاناتها وتحملا لمسئولية الرقى بها ... ذلك لأن مشاهد الاسراء والمعراج كانت وثيقة الصلة بالمجتمع.. بل كانت تصويرا لأبعاد المجتمع الجديد الذى لم يتحقق الا بعد الهجرة فى المدينة المنورة .. من أجل ذلك جاء الاسراء والمعراج وسط جهاد الرسول، قبله جهاد ، وبعده جهاد . وما فيه من مشاهد أصبح مادة جهاد » (٣) .

وكان قد تقرر ان تنظم عملية المؤتمرات الدينية التى تحضرها مصر فى الخارج سواء منها الاسلامى أو المسيحى . وسينظم هذه

---

(١) وثيقة ومفتاح ومنبر الاهرام ٨ أغسطس ١٩٧٣ ؛ « أمامكم هجرة » الاهرام ٢٤ يناير ١٩٧٤ .

(٢) انظر الكلمات التى القيت فى المؤتمر الذى عقده المجلس الملى العام للاقباط الارثوذكس بمناسبة مرور عام على حرب أكتوبر وطنى ١٣/١٠/١٩٧٤ وما كتبه د . عبد العزيز كامل مع ابطال التحرير ، الاهرام ١١ نوفمبر ١٩٧٣ ، رسالة من شهيد يوم عيد الاهرام ١٦ أكتوبر ١٩٧٤ .

وانظر رسائل الى محرر ، الأخبار ٢٥/٩/١٩٧٤ بمناسبة كلمته فى الاقصر . وبمناسبة عيد الميلاد « صفحة من الاخاء » الاهرام ٧ يناير ١٩٧٥ .

(٣) فى ذكرى الاسراء والمعراج ـ خطوات نحو القدس الشريف ، الأهرام ١٧ يوليو ١٩٧٤ .

مركز خاص بما يحقق وجود صوت مصر فى مختلف المؤتمرات لمقاومة أسلوب الدعاية الصهيونية وليكون حضور هذه المؤتمرات فرصة لتوضيح الموقف العربى (١) .

كما أعلن الدكتور عبد العزيز كامل بعد عودته من مؤتمر قرطبة انه سيدعو الى عقد مؤتمر اسلامى مسيحى فى القاهرة يشترك فيه رجال الدين فى الازهر والكنيسة المرقسية وأساتذة الجامعات والمجلس الاعلى للبحوث الاسلامية . وتناقش فيه نتائج وقــرارات المؤتمر الاسلامى المسيحى الدولى الذى عقد أخيرا فى قرطبة وليضع خطة متكاملة للعمل المشترك بين الاجهزة والمؤسسات العلميـــة الاسلامية والمسيحية فى مصر (٢) .

وفى الحفل الذى أقامه المجلس الملى العام بمناسبة مرور عام على حرب أكتوبر دعا الدكتور عبد العزيز كامل الى اجراء حوار اسلامى مسيحى يستهدف اتخاذ موقف موحد من قضية الكيـــان الاسرائيلى وتحديد مفهوم الايمان بالله عند المســـلمين والمسيحيين لا يهدف الى تصيد نقاط الخلاف ولكن يركز على النقاط المشتركة بينهما واقترح أن يجتمع العلماء المسلمون والمسيحيون المتخصصون فى كافة فروع العلم لوضع كتب مشتركة حتى يتعود العلمـــاء الجلوس معا وحتى يرى أبناؤنا كتبا تؤكد معنى الايمـــان بالله الواحد فيما لا يختلف عليه المسلم والمسيحى (٣) .

كما اقترح عقد ندوة اسلامية مسيحية بالقاهـــرة يكون موضوعها القدس ، حتى يرى الجميع ان رأى الأزهـــر هو نفس

---

(١) الاهرام ، واخبار اليوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٣ .
(٢) الاهرام ٢٣ سبتمبر ١٩٧٤ .
(٣) ٣ أكتوبر ١٩٧٤ .

رأى الكنيسة فيما يتعلق بالقدس وتأكيد عروبتها وانها عندما تكون في أيدينا تكون رمزا للسلام والاخاء والمحبة (١) ٠

---

(١) وطنى ١٣ أكتوبر ١٩٧٤ ٠

وكتب أحمد بهجت بمناسبة عيد الميلاد : « وهكذا اضطرتنى الانفلونزا الى الهبوط الاضطرارى فى الفراش .. كان الامس هو عيد الميلاد المجيد . لم يكن أمامى ما أفعله غير التأمل فى بقعة الشمس التى راحت تنسحب على الفراش سابحة بالمرء ثلاثين عاما الى الوراء ٠٠ الى عهد الطفولة ٠٠ أذكر فى طفولتى أن أحب أصدقائى كان مسيحيا ، وكانت صداقتنا عميقة الجذور ؛ فشباك بيته أمام شباك بيتى ، والحارة الصغيرة التى تفصل بيننا هى ملعب للكرة نتقاسم انتصاراته وهزائمه ٠ ولم تكن الاشارات تتوقف بيننا طوال النهار أو الليل ، ومثل سفينتين تسيران فى الليل كانت الأضواء المنبعثة من كل واحدة فيهما تخرج من قلب السفينة الثانية كل شعور بالوحدة ٠٠ كان اسمه « سمير » وكنا نتحدث أحيانا فى الدين ، وشأن الاطفال والصغار كان كل واحد منا متعصبا لدينه - ورغم ذلك كانت صداقتنا وجيرتنا تشبه قانونا كونيا تذاب فيه كل أنواع الاختلاف ٠٠ والأصل فى الصداقة أنها تزيد من ثراء الانسان ، وأبسط نتائج الصداقة بين طفل مسيحى وطفل مسلم أن كل واحد منا كان يحتفل بأعياده وأعياد صديقه .. وهكذا كان العيد الكبير اذا هل شرفه سمير بيتنا وعاش معنا طوال اليوم ، واذا جاء عيد الميلاد المجيد شددت الرحال الى بيته وقضيت معه اليوم كله ٠٠ وكنت أحس كمصرى بالثراء الحقيقى ، فها أنذا أملك أعيادى كمسلم وأملك أعياد أصدقائى المسيحيين ٠٠ وكبرت الايام وابيض شعرها وتفرقنا كل فى اتجاه ، وتغيرت صورة السيد المسيح فى عقلى ، عرفت عنه أكثر فأحببته أكثر .. وكيف لا يحب الانسان كلمة من كلمات الله سبحانه ، وروحا كريما لنبى من أولى العزم الكبار ، استطاع أن يقيم خلال أيامه القليلة على الارض مملكة لا تتسع لغير الغفران والسلام والحب ورحمة التجاور ٠

« جاشت بقلبى الأحاسيس مختلطة غامضة وأنا أستعيد القول الالهى الصادر فى القرآن الكريم .. « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنو اليهود والذين اشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنو الذين قالوا انا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » .

« أليس تقرير هذه الحقيقة منطويا على أمر الهى بأن يرد المسلمون ود المسيحيين بود افضل منه » (الاهرام ٨ يناير ١٩٧٥) .

الفصل الرابع

قواعد الحوار

مع متانة الوحدة الوطنية فى مصر ، وعمق الحياة المشتركة – فان سؤالا لابد أن يثور – ألا يكفى هذا البناء المصرى على صعيد الواقع ، فلا داعى لاثارة مناقشات نظرية ، عقائدية ، تنبه الى أسباب للخلاف فى الدين – قد ينعكس أثرها على الحياة المشتركة نفسها.

التساؤل له وجاهته . وهو ينبه الى الاسلوب الواجب مراعاته عند ممارسة الحوار . والاجابة الوحيدة التى يكون معها الدخول فى هذه الممارسة مقبولا هى أن الحوار سيزيد من متانة الوحدة الوطنية ، ويعمق الحياة المشتركة ويقوى أساسها .

كيف ؟

الانسان ليس كائنا حياته محصورة فى الواقع العملى وحسب ان له بالاضافة الى ذلك عقلا وفكرا . وهو يهتم بالمشاكل الجوهرية التى تمس الحياة الانسانية . يفكر فى واقعه ويوجهه . ويفهم واقعه ويستخلص أسسه النظرية .

ليس من الممكن اذن أن تحول الحياة المشتركة دون أن يعي أطرافها معناها ، وصلتها بالعقائد التي يؤمنون بها ·

الضمان الاكيد لهذه الحياة المشتركة هو وجود وجهة نظر مشتركة ، وايمان ورؤية واعية يتفق عليها الجميـــع ويتحركون بمقتضاها ·

في اطار هذه الرؤية المشتركة ، وبقصــد تدعيم الحيـــاة المشتركة الواحدة ــ يجرى الحوار ·

تقوم هذه الرؤية على مفاهيم رسخت في أعماق الانســـان المصرى استخلصها من خبرته التاريخية وواقعه ، وعاشت معه طوال تاريخه دون انقطاع :

١ ــ ايمان بقيمة الانسان ــ صورة الله ، مشارك في الطبيعة الالهية (١) خليفة الله ، مسجود له من الملائكة · هنا الخط الفكرى والروحي متصل بلا انقطاع · ألا يوجد كبير تقارب بين الفكـــرة المسيحية التي تقول بمشاركة الانسان للطبيعة الالهية بتفضـــل من الله ، وبين أمر الله للملائكة بأن تســـجد للانسان كما جاء في القرآن ؟ إن المشاركة التي تقول بها المســـيحية وسجود الملائكة يفترضان معا وجود فارق نوعي بين الانســـان والله ولكن الفكرتين متقاربتان · وهدفهما واحد وهو تأكيد كرامة الانسان ·

٢ ــ لم يمارس الشعب المصرى سلطة الحكم ممارســـة واعية وحقيقية أثناء عصور كانت ترفع شعار الدين أساســـا لنظام الحكم · لقد استمر اضطهاد الشعب متصلا منذ بيزنطـــة المسيحية ومع المماليك والعثمانيين·لذلك لم تتحول العقيدةالمسيحية أو الاسلامية في الوجدان الشعبي الى سند للحكم القائم بل كانت كما ذكرنا حافزا للرفض والثورة ·

---

(١) رسالة القديس بطرس الثانية في العهد الجديد ١ : ٤ ·

٢ ـ قبل المجتمع تعايش المطلقات ـ ومن هنا مبدأ ذو شقين : فعلى الصعيد الفردى يحيا المصرى حبه للمطلق وطاعته له بلا حدود · وعلى الصعيد الاجتماعى يكون المرجع هو التفكير العقلانى المشترك · صاغ الإنسان المصرى هذا فى المبدأ الذى استخلصه المد الثورى : الدين لله والوطن للجميع ·

وفى اللحظات التاريخية الفاصلة كانت الطبيعة التعددية للمجتمع ذات أثر حاسم فى صنع قرار الشعب :

حدث هذا عند لقاء عمرو وبنيامين، وفى مواجهة كل وافد مستعمر وفى مواجهة الظلم الاجتماعى والاستغلال ·

٤ ـ ثقة فى قدرة العقل الانسانى على فهم الواقع والسيطرة عليه ، والتفاهم وتبادل الخبرة بين البشر · نهض العقل المصرى بهذه المهام منذ عصور موغلة فى القدم ، وتأكد فى المرحلة الأخيرة مع مواجهة الحضارة الحديثة كما رأينا ذلك كله فيما سبق ·

وتقدم التعددية للعقل المصرى المعين الاكبر ، لأنها أتاحت له الفرصة لاطلاق قدراته على الصعيد الاجتماعى · فالقبول بتعايش المطلقات جرد المجال الاجتماعى من الطبيعة المطلقة ، واتاح للعقل مجاله الطبيعى : النسبية والاختيار بين البدائل على أساس المصلحة ـ كى يؤدى وظيفته ·

ومع تراكم الخبرة تمضى الحياة المشتركة ، فى نشاط مستمر تلقائى · ولم تعد محتاجة لتذكرالتعدد · وتزداد خبرة العقل المصرى وقدرته ·

ولهذا فان الوحدة تصبح هى الوضع الطبيعى العادى للحياة الاجتماعية ، أما التعدد فلا يتذكره المجتمع الا عندما يقع فى أزمة ، تزعزع تكامله · حينئذ يعود فيستذكر تاريخه ، وطبيعته ليؤكد من جديد وحدته ·

وقد لايلاحظ الطابع التعددى فى الظروف العادية الاجنبى الغريب عن المجتمع وعن حياته اليومية ٠

(وإذن فنقطة البداية فى الحوار المصرى بين الاســـلام والمسيحية هى الحياة المشتركة ٠ التى ارتضاها أصحاب الدينين ٠ وهدف الحوار هو تفسير هذه الحياة تفسيرا مشــتركا ، يمكن به أن يزداد أساسها متانة ٠ وتستطيع بواسطته ن تواصل مســارها التقدمى ٠

بهذا الحوار يزداد تفهم مكونات المجتمع لبعضها البعض ٠ فليس من السائغ أن يكون مصدر معلومات فريق من المصريين عن الآخر مصادر خارجية ٠ خصوصا اذا لم يكن لدى هذه المصادر كبير عطف على مصر والمصريين ٠

أما التفهم المتبادل المباشر فيعمق الفكر المشترك الذىيستخلص من ممارسة الوحدة ويتم الرضا به رباطا ٠ ويمضى الحوار ــ عملية مستمرة تراكمية ومتطورة ، فيها الاستعداد للاصغاء والتكلم ،الأخذ والعطاء ٠

● القاعدة الأولى : عن الآخر :

نقطة البداية فى الحوار ان ثمة انسانية مشتركة تجمعالطرفين فهذا الذى أجرى الحوار معه ــ مهما يكن جنسه ولونه وانتماؤه الدينى ، انسان على صورة الله وخليفة له ٠ مثلى ٠ له حقه فى أن يحترم (بضم الياء) بصفة كونه انسانا ٠ وفى الحوار يجرى قبول طرف للآخر كأخ ، وزميل كفاح فى اطار العائلة الانسانية ٠

ومن هنا القاعدة الاولى والرئيسية فى الحوار :

فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهوما ــ

معرفته كما يعرف هو نفســه ، وليس كما أراه أنا ، طبقا لفكرتى التى كونتها عنه ٠

ان الاغتراب هو رؤية الآخر ـ فكره وعقيدته ودينه ـ من خلال فكرة منفصلة عن الآخر يكونها الرائى ٠ أما الحوار فهو اللقـــاء مع الآخر الحقيقى الحى وليس مع فكرتى عنه ٠ بهذه الطريقــة ينتفى الاغتراب ٠

فحين أفهم عقيدة الآخر من خلال شرحه لها ، تنكشف لى فيها أبعاد لم أكن أراها حين كنت أواجه تلك العقيدة وحدى ، من خلال عقيدتى أنا ٠ حين أنصت اليه فى احترام متبادل ،خصوصا مع اتخاذ موقف عملى مشترك فى القضايا الانسانية ، وفى الحياة المشتركة داخل مجتمع بذاته ـ سأفهم أشياء لم أكن أقبل مجرد التفكير فيها ونكتشف أن كل طرف كان مخفيا عن الآخر وان ثمة اساءة للفهم بل وتشويها لفكره ٠ وما كان يبدو غير قابل للمناقشة أو الدفاع عنه بسبب وضوح خطئه ، صارت لهجوانبهالصحيحة ٠ ويســود الطرفين الاقتناع بضرورة فهم كل منهما للآخر بجدية ودون فكر مسبق يطرح عقيدة الآخر مقدما ٠

وهكذا ينتفى الشعور بالتعالى ، وادعاء الرعاية ٠ وتجرى عملية احترام متبادل بين الطرفين ، واعتراف بالمساواةفى حق كل منهما فى شرح وجهة نظره والدفاع عنها ٠

وحين يقول واحد : كلا ٠ ليست هذه التى تشرحها هىعقيدتى بل هى منسوبة زورا الى ـ يؤخذ كلامه بجدية ٠ فالجهل بالآخر هو أكبر عقبة فى الحوار ٠ وحين يتمسك واحد بفكرته عن الآخر رافضا ما يقوله هذا عن نفسه ، لا يكون ثمة حوار ، بل حديث من طرف واحد ٠

فى مؤتمر قرطبة قال د ٠ عبد العزيز كامل :

« هنا على المنبر الواحد يتعاقب مسلمون ومسيحيون ، يتحدث المسلم عن المسيحية ، والمسيحى عن الاسلام ، والاثنان عن مجالات التعاون • وأصبح الحوار يدور حول : فيم تتفق ، وكيف نتعاون وكيف توسع أراضى اللقاء • أما ما نختلف فيه ـ فلا أطلب منك ولا تطلب منى ، الا أن أفهمك وتفهمنى واسمع منك وتستمع الى مع دون اكراه فى الدين •• توسيعا لدائرة الفهم والاتفاق • ان التركيز فى لقائنا هذا على ما يمكن أ ن نسميه « تقديم متبادل للاسلام والمسيحية ودعم لمجالات التعاون فيما بيننا » ، لجأ فيه كل منا الى كتب أخيه يقضى معها وقتا ، ويزداد فيها تأملا وتعمقا • واسترجع تجاربه ، وأعد عقله لمزيد من الصداقة والمحبة والتعاون السمح ، الذى لا يتجه الى عداوة ولا يستهدف الا الحق والسلام القائم على العدل » •

لهذا يسود الحوار مناخ من الصداقة والتعاون • فيجهد كل طرف فى أن يستخرج أسمى ما لدى الآخر فى عقيدته • ففى الحوار يرى الواحد الآخر فى نور جديد ـ ليس كعدو يراد قهره ، أو تلميذ بهدف تعليمه ، أو منافس يتعين ازاحته ـ بل كصديق ورفيق طريق مساو له • وفى كل دين أو عقيدة نجد النصوص والآيات والوصايا التى تدعو الى احترام الآخر وفهم رأيه •

الحوار لقاء أشخاص حية لا مجردات ، حديث بين متدينين وليس مواجهة بين أديان ونظم ، أو مناقشة بين لاهوتيين وعلماء كلام • فعقيدة الآخر ينظر اليها من خلال معتنقيها ـ أى من خلال ما تلهمه من مواقف وتصرفات وهنا المعيار الحقيقى : فاذا كان من حق الآخر أن يكون مفهوما كما يريد ، فان سنده فى هذا الطلب أن تكون مواقفه العملية متفقة مع ما يقوله ومقبولة من الطرفين معا • فالحوار يجرى بين عقائد حية وليس دراسة لأديان لم يعد لها مؤمنون • الحوار بين الأديان الحية يختلف عن دراسة أديان

الاغريق أو المصريين أو الاشيوريين القدامى · فاذا كان ثم حياة مشتركة ومواقف موحدة يتخذها أصحاب أديان متعددة فهنا يصبح الاحترام المتبادل شيئا طبيعيا ·

في هذا المناخ يمكن للانسان أن يقول ان ما يؤمن به حق — ولكن بسبب تمسكه بايمانه لا يصبح مشروعا أن يقول ان مايؤمن به هو وحده الحق ، وان كل ما لدى الأخرى باطل · فيظهر الواحد الايجابيات في عقيدته دون نفيها من عقيدة الآخر · ينتفى التعود على استعمال أفعل التفضيل وعبارات القصر : في عقيدتي وحدها·· مع نفي الايجابيات من عقائد الآخرين · ويترتب على ذلك اعادة النظر في كثير مما نقرأه في الصحف والمجلات والكتب التعليمية وما نسمعه في الاذاعة ··· الخ عن عقائد الآخرين وكتبهم المقدسة· ويمتنع نقد العقيدة الأخرى بمنهج لو انه طبق على عقيدة الناقد نفسه لأدى الى نتائج تشابه تلك التي وصل اليها الناقد في مواجهة عقائد الآخرين ·

الحوار هو منهج الحياة في المجتمع التعددى وهو يفترض الخلاف بين أطرافه · وهو لا يهدف الى أن يحتوى طرف — الطرف الآخر وعقيدته · اذا وصل كل طرف الى فهم الآخر كما يريد هذا أن يفهم (بضم الياء) ، واذا حددت نقاط الاتفاق والخلاف تحديدا واضحا بحيث يتفق الطرفان على هذا التحديد ويرتضيانه أساسا لفهم كل طرف لنفسه وللآخر — اذا حدث هذا الحد الادنى من الفهم المتبادل فان الحوار يكون قد أدى أولى وظائفه ·

ولهذا فان الحوار أصبح ضرورة في عالم اليوم — لأن المجتمعات المعاصرة ليست موحدة الفكر أو العقيدة أو الدين ، بل تضم أكثر من عقيدة ·

القاعدة الأولى تتعلق بالآخر ·

والقاعدة الثانية تتعلق بعقيدة الشخص نفسه ـ عقيدتى

الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهما لدينه كى يستطيع عرضه للآخر بأسلوب مقبول ومقنع · فعين يطلب الآخر منى شرح علاقتى بالمطلق الذى أومن به ، أى شرح دينى أو عقيدتى ، فاننى أجهد لأن اجعلها مقبولة منه ، أى أحاول ايضاحها بدون المسلمات القبلية التى قبلتها أنا من قبل دون تمحيص ، ولايشاركنى فيها الآخر · ذاك يعطي لعقيدتى عمقا وتعبيرا لم يكونا واضحين أمامى من قبل حين لم أقف تجاه عقيدتى موقف الآخر منها · واكتشف فى عقيدتى أبعادا لم أكن أدرى من قبل أنها فيها ·

الانسان حين يعبر عن نفسه يزداد فهما لنفسه · ولا يمكن أن يتم التعبير عن النفس فى صدق وأصالة الا داخل مناخ تقــوم العلاقات الانسانية فيه على أســاس الاحترام المتبادل والتسليم مقدما بحق كل طرف فى أن تكون له العقيدة التى تقنعه · انالحرية هى منطلق الحوار ، حرية كل طرف واحترام حرية الطرف الآخر ·

ففى الحوار شهادة كل لدينه ، شهادة لها احترامها من الآخر

فليس الهدف من الحوار الوصول الى موقف وسط بينالعقائد أى للوصول الى توفيق تلفيقى ، يقوم على اتخاذ موقف نسبى عام · بل أساس اللقاء هو الالتزام الكامل والمخلص من كل شـــخص بايمانه · دون تنازل عن الاصالة للوصول الى بعض عبارات غامضة تميع جميع العقائد ·

وفى نفس الوقت فان الانفتاح لفهم الآخر سينعكس على فهمى لعقيدتى ـ أكتشف فيها أشياء جديدة كانت مختفية وعاطلة وأظهرها

الحوار . وأعيد النظر فى أفكار وأساليب وتصرفات وضح من خلال الحوار ضرورة تعديلها .

يقول د . كمال أبو المجد فى كلمته التى القاها فى احتفال المجلس الملى بمرور عام على عبور ٦ أكتوبر :

« ان تاريخ هذا الشعب يؤكد دائما حقيقة الالتقاء بين المسلمين والمسيحيين . وعندما نرفع اليوم شعار الوحدة الوطنية فلسنا نرفعه خوفا من التفرقة ــ ولكن لأننا نريدها وحدة حقيقية بين مسلمين ومسيحيين ، وليست بين أشباه مسلمين وأشباه مسيحيين . ومن هنا فان الدعوة للوحدة هى دعوة للتركيز الواجب على مواطن اللقاء ــ وما أكثرها ، وتأكيد على الجزء المشترك والفهم الواحد . نريدها وحدة قوية باسم الاسلام والمسيحية وليست على أنقاض الاسلام والمسيحية » (١) .

وفى كل دين شيء مجهول . ويوضح لاهوت النفى الذى عرضنا له من قبل هذه الحقيقة .

وهناك دائما مسافة تفصل بين ما يدعو اليه الدين أو العقيدة وبين ممارسة المتدين لدينه . ويفيد الحوار فى تضييق هذه المسافة لأنه أولا يكشف لصاحب كل دين أو عقيدة النقص الذى يشوب ممارسته ، ويوضح الحوار للشخص أعماقا فى دينه لم يكن يراها وهو يدرسه ويفهمه ويطبقه منفردا أو من خلال شرح فقهائه .

ثم ان الحوار يكشف لصاحب الدين أو العقيدة ــ من خلال دين الآخر أو عقيدته أو ممارسته لها مفاهيم جديدة ، وأساليب للممارسة تضيق المسافة بين المبدأ والتطبيق وتساعده على الاقتراب من مثله الاعلى .. ففى الحوار نكتشف التكامل . العطاء والاخذ .

---

(١) وطنى ١٣ اكتوبر ١٩٧٤ .

الاثراء المتبادل · حينئذ يصير من الممكن الاعتراف بأن الآخر مصدر للالهام ، وللقوة · وينتفى التعالى الذى يستند الى شعور بالكمال والاكتفاء الذاتى · بل يكتشف كل واحد انه يحتاج الى الآخر – اذ يخرج الواحد من اطاره وعقليته ليدخل فى عقلية الآخر مع الاحتفاظ بهويته · فينظر الواحد الى الآخر على أن كل واحد لديه شيء يتعلمه منه الآخر ويستفيد به · وان لدى كل واحد أيضا شيء يقدمه · فتنحل عقدة التفوق التى تعطل تبادل الفكر والتفاهم ·

حينئذ لا يكون الآخر مصدرا للخوف أو الريبة أو التهديد ، بل منبعا للثقة والفائدة خصوصا فى اطار حياة مشتركة ، يتخذ فيها جميع الاطراف مواقف عملية موحدة ·

ولهذا فان الحوار الناجح مع الآخر ، يتلوه حوار داخلى مع النفس ، وداخل الجماعة المنتمية الى نفس الدين · كل طرف يعيد التعريف بنفسه لنفسه ، مستفيدا من كل نتائج الحوار مع الآخر ·

● القاعدة الثالثة : عن المطلق

جوهر الدين هو انه يعلم البشر عن الاله ، ذى الطبيعة المطلقة – فى العلم والعمل · والذى يهيمن على كل شيء وكل كائن،

المتدين يؤمن بأن الاله الذى يعبده ، هو المعتنى بجميع البشر · الذى وضع منذ البدء صورته فيهم – مهما اختلفت فيما بينهم الاجناس والاديان والعقائد ·

الايمان الأصيل بالمطلق يخرج الانسان من عزلته ، ويدعوه الى علاقة أكثر قربا واتصالا بباقى البشر · لأنه فى هذه الصلة انما يقترب من صورة الله فيهم · وحين يعتنى بهم ويتفاهم معهم فهو يعمل مع المطلق الذى يؤمن به · يلاقيه فى الآخرين فيزداد فهما له

ولتدبيره ، وعمله . ويدرك ابعاد سلطانه وارادته . يحدث ذلك أيضا حين يتعاون مع الآخرين في فهم الطبيعة التي خلقها الله ، وفي التسلط عليها وتسخيرها لصالح الانسان .

وبدلا من أن تكون الاديان حواجز وحدودا وفواصل تصبح جسورا للتفاهم بين البشر المخلوقين على صورة الله .

ولكن الحوار يعني لقاء بين مطلقين أو أكثر ، وبحكم طبيعة المطلق فانه يستبعد وجود مطلق آخر . كيف يمكن اذن أن يحدث لقاء مطلقين ؟ حول الانسان .

ان ارتباطه بالمطلق في المسيحية والاسلام واليهودية أيضا يجعله موضوعا نموذجيا للحوار بين الأديان ومن خلال عقائدها بشأنه كما سبق البيان . واذ تستخلص منها النتائج المنطقية المترتبة على ما تمنحه للانسان من كرامة وعزة يكون الايمان الديني قريبا من مشاكل الحياة ، يلجأ اليه كل من يكافح لانقاذ الانسان ورد كرامته اليه .

في الانسان يتصل المطلق بالنسبي . والهدف هو السمو بالانسان كي يصبح قادرا على أداء رسالته ، وتغيير الواقع المتخلف. متعاونا في ذلك مع كل انسان فيه صورة المطلق . وكلما اتسعت الوحدة الانسانية وضمت جماعات جديدة من البشر ازداد — اذا ساغ هذا التعبير — تكامل صورة المطلق الساكن في البشر ، وازدادت السيطرة على الواقع .

وفي اتحاد الانسان بالمطلق ينشأ الوعي بالمحدودية والنسبية الكامنة في الوجود الانساني ، مع رفض الموقف الراهن لأن الانسان مدعو لتحقيق مثله الذي خلق على صورته . كما يوجد من خلال هذا الاتحاد ضمان أكيد على حتمية التقدم . الانسان هنا يكتسب ايمانا وقدرة نابعين من التصاقه بالخير الأعظم وبالقوة العظمى .ومع

تسامى المطلق ، واذ يتخذه الانسان نموذجا ومثلا أعلى تنفتح آفاق التقدم بلا حدود ويتحرك خيال الانسان وتقوى قدرته على الخلق والابداع ٠

ان المؤمنين بالمطلق ـ على اختلاف أديانهم ـ يضمهم اتفاق اجماعي على أن الدين يدعو كل مؤمن به الى تجاوز الواقع والسمو به ليكون الانسان فيه على مستوى صورة الله ٠

الدين ـ قبل كل شيء ـ يهدف الى صنع الانسان ، فكره ومشاعره ـ يخرج الانسان من حضن الدين مملوءا بالحب والأمل راغبا فى الخدمة ٠ كريم القلب عالى الهمة ٠ قادرا على الانجاز ٠ يقف مع المظلوم يدافع عنه ٠ ويواجه الظالم والظلم بكل شجاعته٠

ومن هنا الثقة التى يضعها الانسان فى من يراه مخلصا فى تدينه ، متمسكا بارتباطه بالمطلق ٠ يفترض الجميع ان لدى مثل هذا الانسان قدرة جبارة وعاطفة شاملة ، وفكرا قادرا على حل المشكلات ٠ ولا يستهين بالانسان ولا يستغله ولا يستهين بالواقع وبتجاهله ٠ بل يرتفع به الى مستوى أعلى متجاوزا كل نواحى الضعف والقصور فيه ٠ يصبح هذا الانسان قادرا على صنع المعجزات والخوارق بقوة الانسان نفسه ومن أجله ٠

وفى الحوار يتم تبادل الخبرة حول كيفية تحقيق هذا التجاوز على صعيد الواقع ٠ وحين تصحب الحوار العبادة فان معنى هذا ان الجميع ـ وان اختلفوا يطلبون ارشاد الاله القوى المحب ورعايته ٠

هل معنى هذا أن تختفى فى الحوار العقائد والممارسات التى تميز كل دين عن لآخر ؟

كلا ٠ بل يظل صاحب كل دين متميزا عن الآخر بايمانه الخاص بالله ، بقوته المطلقة الفاعلة المفارقة أو المحايثة ٠ بطبيعة

المطلق وكيفية ظهوره في التاريخ • ووصول رسالته الى البشر ووسيلة وصولها ، والرسول والنبى أو الأنبياء أو الرسل الذين قاموا بذلك ، وبالكتاب او الكتب التى اعلن المطلق فيها ذاته وارادته من نحو الحياة فى هذا العالم أو فى عالم آخر •

يحتفظ بكل هذا الايمان المتميز فى نفسه ويستمد منه القوة الداخلية والثقة ويقين النجاح • ويؤدى مطالبه كاملة فى العبادة والتأمل ويكتسب نفاذ البصيرة والصبر على العمل والقدرة على التغيير • ثم يشهد لهذا كله فى الحوار ويظهر فاعليته واقعا ظاهرا اجتماعيا •

ومن البناء الروحى والفكرى الذى يؤمن به المنتمى للدين ، ومن النماذج التى تصنعها العقائد والاحداث والتعاليم الدينية ،ومن الخبرة الخاصة للمتدين - اذ يتفاعل فى داخله ذلك كله ويدخل فى شركة معه تتكون خلفية نشاطه الاجتماعى وتتدعم مواقفه ، ويظهر ايمانه • وامتياز الواحد على الآخر لا يظهر فى الجدال العقائدى ومقارعة الحجة بالحجة • بل فى العمل لصالح الانسان فى جميع المجالات • وهنا نجد التعدد ، والوحدة

التعدد على صعيد الايمان •

والوحدة على صعيد العمل •

ويكون الهدف من الحوار أساسا ، ليس الوصول الى اتفاق فى العقائد ولكن تعاون ووحدة فى مجال الواقع والعمل •

● القاعدة الرابعة : عن الممارسة

ذلك أن ثمة أمرا تتفق عليه جميع الأديان : هو ان هدف الدين ليس مجرد المعرفة • ولكن الممارسة •

والممارسة هى التحام المبدأ بالواقع - ثم التزام الموقف الناشىء من هذا الالتحام ٠

والحوار الناجح هو الذى يؤدى الى اتخاذ الطرفين موقفا عمليا - ويبدأ الحوار من الموقف الذى اتخذه كل من الطرفين على أرض الواقع : كل منهما يشرح مبدأه وعقيدته - ثم فهمه للواقع - وكيف التقى المبدأ بالواقع ٠

والحوار يفترض أن كلا من طرفيه اسقط عقيدته على الواقع مشتركا ، فالممارسة هى الضمان الاكيد لجدوى الحوار ٠ واللقاء الحقيقى بين الأديان يكون على الصعيد العملى - ومن خلال الحوار يفهم كل طرف كيف انطلق الآخر من نقطة بداية مختلفة عن عقيدته ولكنه وصل الى نفس الموقف الذى أوصله اليه ايمانه ٠

حينئذ يتأكد الاحترام المتبادل - اذ يدرك كل طرف أن معتقد الآخر يمكن أن يفرز نفس الموقف العملى ٠ وهكذا يقف الاثنان واقعيا على أرض موحدة ٠ وبعد اتخاذ هذا الموقف المشترك ، يصبح الحوار تعبيرا عنه : يفهم من خلاله كل طرف أسباب اتخاذه الموقف فيزداد معرفة بعقيدته ، ويفهم أسباب اتخاذ الآخر ذلك الموقف ، فيزداد التقارب وتتعمق المشاركة ٠ ان الحوار المجدى هو الذى يجهد لفهم الآخر ، لا من خلال فكر هذا الآخر نظريا وحسب ،ولكن من خلال النضال المشترك ٠ فالحوار بين الاديان يجب أن يكون على الارض ٠ وليس فقط فى السماء - فيكون الانسان موضوعا رئيسيا له : كيف تحفظ له كرامته ، ويظل فى الواقع صورة لله وخليفة له٠

وهنا يكون اللقاء الحقيقى مع الله - الذى يعرف (بضم الياء) أعمق معرفة من خلال الممارسة ٠ ففى احترام الانسان الطاعة المثلى لله ٠ ويبرز الطرفان ما تتضمنه كل عقيدة - فى مفاهيمها ، وشعائرها ، ورموزها ، ونماذجها ، وأحداثها - من معان وما تقصده لصالح الانسان واحترامه ٠

الطرفان لا يقف الواحد منهما تجاه الآخر فى مجادلة فكرية ــ بل يقفان معا كل الى جانب الآخر ، يواجهان معا مشـــاكل المجتمع الوطنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ٠٠ ان الممارسة وحدها هي التى تكشف الطريق الذى لا تتصارع فيه المبادىء والعقائد بل تتعاون وتثرى ٠

أحيانا ما يكون الاصرار على ابقاء الحوار نظريا ، هو الخوف من اقتراب الدين الاصيل الذى يجلوه الحوار ويؤكد مفاهيمه ــ الى الواقع ٠ لأن معنى هذا ضرورة تغيير الواقع ومواجهة قـــوى السيطرة ٠ فيكون الحوار النظرى وسيلة للهروب والمهادنة ٠

وكى يمارس صاحب العقيدة مبادئه لابد أن يفهم الواقع ، هنا يكون للعقل وللعلم دورهما ٠ انهما يفتحان عينى المتدين ٠

ان رؤية الواقع تجعل المتدين يبصر فى المطلق الذى يؤمن به أبعادا نظرية وعملية ، كانت فكرته التى كونها من قبل أن تكون له هذه الرؤيةالعلمية تغلق عليه الطريق فلا يرى مدى اتساع وعمق وقدرة المطلق ٠ وتنفتح أمامه مجالات جديدة للعمل وصنعالمعجزات الانسانية ٠ ان رؤية الواقع بالعقل والعلم تشفى من الاغترابالدينى وتمنع تكوين صورة عن المطلق ليست مطابقة له ٠

هنا تظهر فائدة دراسة المذاهب العقلانية التى تبدأبالواقع وتنحصر فيه وتنتهى اليه : الليبرالية ، الرأسمالية ، والاشتراكية بمختلف مدارسها ٠

والحوار عملية متطورة ، تراكمية ٠ والالتحام بالواقع والتزام الممارسة خلال الحوار يؤثر فى الطرفين ، ويقارب بين اتجاهاتهمـا

الفكرية اذ ينعكس الموقف العملى المشترك على المعتقد - معتقد الواحد ومعتقد الآخر يزيدهما وضوحا ويكشف منهما جوانب كانت خفية . ويطورهما ويصوغ الطرفين - معا ويخلق فيهما قيما متشابهة . فينمو الطرفان معا على صعيد الفكر والعمل .

لذلك فالحوار لا يكون بالحديث عنه ، ولكن بالدخول فيه فعلا - ليس على الصعيد النظرى وحسب ، ولكن بالفكر والممارسة معا .

والحقيقة ان الحوار من خلال الممارسة فى الحياة المشتركة هو الذى يتيح لأكبر عدد ممكن من جماهير الشعب ان تشارك فيه ، فلا ينحصر فى دائرة المثقفين عالية ومغلقة .

ومن هنا يتولد فى المجتمع مناخ الثقة وينتهى سوء الظن . ان الحوار هو نقطة اللقاء بين « الحق » و « الحب » . هذا يندفع فى العطاء ، والتنازل . وذلك يتراجع ويحصر ذاته فى اطار مضمونه رافضا التنازل . فهل يمكن الوصول الى موقف يعطى فيه الانسان كل شى حبا - دون أن يتنازل عن شىء من الحق الذى يؤمن به ؟ .

يحدث ذلك على صعيد العمل والممارسة . فيها يحدث اكتشاف الحق من خلال الحب ، والمعرفة من خلال الحياة ، والحب الذى يظهر الحق فى عمقه وأصالته وجديته .

واذن ، فاننا نستطيع أن نبرز بعض الموضوعات التى يمكن أن يدور حولها حوار صحى ومفيد .

- الانسان ، حقوقه ، وكرامته .
- العلاقة بين « الكلمة » و « الفعل » . وأساليب الانفصال بينهما ، وكيف يمكن أن يتطابقا .

- الثابت والمتغير فى الدين – بسبب اختلاف الزمان والمكان ·
- تصور المستقبل فى الأديان ·
- تقديم أصحاب كل دين لعقائد دينهم وقيمه وتاريخه وممارسته · وارتباط ذلك كله بالانسان وحقوقه وكرامته ·
- مظاهر الحضارة التى أفرزتها الاديان : الموسيقى ، الفن عموما ، الأدب ·

ان الحوار المصرى الاسلامي المسيحى يمكن أن تكون له موضوعات حية يتفهمها المثقفون ورجال الدين وجماهير الشعب·

من خلال الحوار يمكن تفهم التاريخ المصرى ، والكشف عن أصول الكفاح الوطنى والديمقراطى والاجتماعى ، وكذا النضال من أجل حقوق الانسان وحرياته · ويمكن بذلك أن يجبر الانفصال فى مراحل التاريخ المصرى ·

وتعطى لكل مرحلة ما هى جديرة به من أهمية ·

كما يمكن الكشف عن معنى استمرار التراث الفنى ، والفلكلورى المصرى · ومن خلال ذلك كله يكتشف شعب مصرى أصالته ووحدته ·

كذلك فان محاولات استغلال الدين على غير طبيعته يجب أن تواجه · وفى نفس الوقت يوضح أطراف الحوار كيف يمكن أن يساند الدين مسار التقدم فى المجتمع وعلى الصعيد العالمى ·

وفى المعاهد الدينية الاسلامية والمسيحية ، وفى مجال الاعلام والتعليم ··· تقدم الاديان متعاونة ومتفاهمة ·

وثمة اقتراح ـ ان تتضمن كتب الدين قسما موحدا ، يشترك فى تأليفه علماء الدينين · تقدم فيه للتلاميذ القيم الدينية العامة التى تحفظ للانسان كرامته وتبرز رسالة الدين ومساهمة المسيحية والاسلام على مدى تاريخ مصر فى كفاحها وفى تكوين الانسان المصرى · (١)

هذا ـ وان انشاء المركز الخاص بالمؤتمرات الدينية ، والذى أشرنا فيما سبق يمثل خطوة هامة فى تيسير امكانيات الحوار · ففيه يمكن تجميع وثائق المؤتمرات كى يتوفر عليها الدارسون الذين يعانون أكبر مشقة فى التعرف على وثائق مختلف المؤتمرات ·كذلك الأمر فيما يتعلق بالدراسات الكثيرة والهامة عن الحوار بين الأديان وهى دراسات تقدم فى مختلف الجامعات والمعاهد العالمية ·

ويمكن أن يكون هذا المركز أيضا ملتقى للدارسين وللمهتمين بالحوار · وفيه يمكن اعداد مؤتمرات الحوار ومتابعتها متابعة علمية وجادة ·

الصيغة المصرية للعلمانية :

ارتبطت الفكرة العلمانية فى أوربا بمعاداة الدين ورجاله · ومنذ عصر النهضة والحركة الانسانية وعصر التنوير كانت العلمانية تقدم نقيضا للفكر الدينى ·

هذه النظرة كانت مرتبطة بالظروف الواقعية التاريخية للمجتمع الأوربى :

---

(١) يقترح الدكتور محمد محمود رضوان وكيل أول وزارة التربية والتعليم تخصيص كتاب واحد لطلاب الثانوية العامة فى الديانتين الاسلامية والمسيحية يشتمل على القيم والتعاليم الأخلاقية والسلوكية فيهما · الأهرام ، صفحة الفكر الدينى ؛ ٢ يوليو ١٩٧٦ ·

(أ) الوضع الطبقى للمؤسسة الدينية الأوربية اذ كانت جزءا من الطبقة السائدة المستغلة داخليا • وتساند التوسع الاستعمارى فى الخارج وهناك نشاطها فى الارساليات الذى يجمع الكل فى الغرب اليوم على نقده •

(ب) والمجتمع الاوربى لا يعرف التعددية • ومن هنا — كما رأينا — سيادة مبدأ الاستبعاد • طبقت هذا المبدأ على التوالى المؤسسة الدينية ثم الفكر الانسانى • كل منهما — الدين والعلمانية — استبعد الآخر فى مرحلة تاريخية وارتبطت العلمانية بمعاداة الدين ورجاله •

ولقد وضح من كل ما سبق اختلاف الظروف التاريخية فى مصر والمجتمع العربى عموما عنها فى أوربا ؛ فالدين ومؤسساته الاسلامية والمسيحية تقف فى مواجهة السلطة التى تمارس القهر — وطنيا وعنصريا وطبقيا • المسيحية فى مصر ومؤسساتها وقفت مع الجماهير وقادت كفاحهم • ويسود فى المجتمع الاعتراف المتبادل بين مكوناته العقائدية والبشرية المتعددة •

نقطة البداية فى الصيغة المصرية للعلمانية تحددت فى لحظة الانطلاق (١) وفى المواقف الفاصلة (٢) وفى ذروة الازمة (٣) •

ومن ثم يمكن تعريف العلمانية بأنها « نظرة المجتمع التعددى المشتركة الى الواقع » •

مقومات هذا التعريف هى :

---

(١) عند لقاء عمر وبنيامين •

(٢) فى مواجهة الاستعمار وعند اصدار الدستور الذى يعبر عن أسس المجتمع ويحدد نظام الحكم فيه •

(٣) عندما تنفجر قوى التخلف والردة فى المجتمع أثناء مرارة الهزيمة •

١ ـ هنا مجتمع ينفى مبدأ الاستبعاد المتبادل · بل يتيح المجتمع لكل فرد أو جماعة أن يشارك فى بنائه · النظرة تكون من خلال عينين لا بعين واحدة · ففى المجتمع التعددى يتساءل كل طرف دائما عن رأى رفيقه فى أى شىء يعرض المجتمع ولقد افتقد الغرب هذا الطابع التعددى حتى أن بعض المفكرين يناشد كل انسان هناك عند تكوين رأيه أن يفترض دائما وجود شخص آخر له دين مخالف ، يشاركه فى تكوين الرأى · كى يستخلص من الفكرتين نظرة متوازنة ·

٢ ـ وهو مجتمع لا يرتبط التطور فيه باستبعاد الدين ومؤسساته بل يقوم هذان بمقاومة الظلم وينهضان بدور تقدمى يساند التطور ·

ومن هنا يقدم الدين سندا وتبريرا لنظام اجتماعى بعينه · ففى المجتمع التعددى يقوم التوازن بين احترام الدين وبين النظام الاجتماعى · والواقع أنه كما يقول د · على دسوقى : « ان أى شكل من أشكال الدولة الثيوقراطية أو الدينية هو شذوذ تاريخى لا يتوافق على الاطلاق مع أضعف فكرة عن المساواة بين المنتمين الى عقائد مختلفة ، ولا يمكن بناء وتطوير علاقة تنسق بين الجماعات الدينية المختلفة الا فى اطار مجتمع (يحترم التعدد) » (١) ·

٣ ـ والنتيجة أن يستطيع كل فرد وكل جماعة أن يحتفظ بالمطلق

---

(١) Ali Dessouki, Reflections on community relationship between Christians and Muslims in the Middle East.

وهو بحث قدم الى مؤتمر الحوار الاسلامى المسيحى فى برمانا ، لبنان ، يوليو ١٩٧٢ · ونشر فى

Christian Muslim Dialogue, W.C.C., Geneva, 1973, p. 99.

الذين يؤمن به - طالما أن هذا الايمان لا يؤدى على الصعيد الاجتماعى الى استبعاد مطلق آخر ، أو الى اعاقة التطور الاجتماعى ٠

ثانيا : النظرة المشتركة

وثمة تعايش في المجتمع بين الأديان ، نتيجة نظـــرة موحدة هى الولاء الاجماعى للوطن الذى يضم هذه الاديان ، واقرار مبـدأ المواطنة - أى أن المعول عليه فى الحياة الاجتماعية والسياسيه والاقتصادية هو الانتماء للوطن لا لدين بذاته ٠ وثمة تعايش لدى الفرد بين الايمان والممارسة الدينية من ناحية ، وحياته الاجتماعية، من ناحية أخرى - أى بين المطلق النسبى : فمثلا فى وقت الاضطهاد الدينى ، كان المسيحيون كما ذكرنا يؤدون واجباتهم نحو الدولة كمواطنين ، ولكنهم يرفضون طاعتها حين تحاول اجبارهم على التخلى عن ايمانهم ٠ وفى نفس الوقت كانوا يصلون من أجل الحاكم كى يؤدى مهامه المتنوعة بنجاح ٠ ولقد رأينا أيضا كيف وقف الشعب المصرى كله يصلى فى المساجد والكنائس من أجل وفد المفاوضـــة المصرى الذاهب الى بلاد الانجليز ٠

وفى هذه الامثلة وهى تمثل الطابع العام للحياة المصرية ، لا يحدث نفى المطلق بل تقف الممارسة الدينية الى جوار المجتمع ، فى حركته وكفاحه ٠

- ويصل التعايش والتعاون بين المطلق والنسبى ، الى الحـد الذى تعتبر معه طاعة النظام الاجتمـاعى وأداء واجبـــات المواطن طبقا للقانون - حدا أدنى ٠ ويستوحى المتدين من مبـــادىء دينه ومن علاقته بالهه أسلـــوبا للحياة يجاوز فيه بالاخلاص والأمانـة ما يأمر به القانون ٠ أو بحســـب تعبير معلم الاســـكندرية فى

القرن الثانى ، يطيع المتدين القانون الوضعى ويسمو عليه فى حياته كما أوردنا ذلك فيما سبق ٠

وهنا يكون الدين والعلاقة الشخصية أو الجماعية بالمطلق مصدرا للمبادىء التى ترفض الواقع الراهن القائم على الاستغلال ، وتدعو الى التغيير والتقدم ٠

ثالثا : تحليل الواقع :

أى رؤية المجتمع ومؤسساته للعلاقات بشأن الطبيعة والسياسة ، والاقتصاد ، والدين ، والفلسفة ، والعلم ، والفن ٠ أى الى الحياة عموما فى مختلف مظاهرها - فانطلاقا من نقطة البداية وهى التعددية والولاء للوطن واقرار مبدأ المواطنة تكون أداة الوصول الى التنظيم الاجتماعى هى العقل ٠ ويسود الوعى بامكانية وجود البدائل للفكر والنظام الاجتماعيين ٠ تخلف هذا الوعى يجعل الخضوع للمفاهيم الاجتماعية خضوعا للمطلق ، ويستبعد احتمال مناقشتها، فتصبح تلك المفاهيم مقدسة وتستبعد ما عداها ، ولا يمكن تغييرها ٠

أما مع اعتبار ن جوهر المواطنة فى المجتمع هو الانتماء لوطن لا لدين ، فان كل مواطن يصبح له الوعى بأن وجهة نظره نسبية ، وتكون هذه النسبية أحد أركان منهجه فى التعامل مع باقى المواطنين ٠ ولذلك يعترف بأن ليس له الحق فى فرض قيمه وأفكاره على أحد بالقوة (١) بل بالاقناع والأسلوب الديمقراطى ٠

(١) على دسوقى ، المرجع السابق ٠

ويستهدف تحليل الواقع تحليلا عقلانيا الوصول الى أحسن نظام يحقق كرامة الانسان ـ صورة الله ، وخليفته فى هذا العالم ٠

ان هذه الفكرة عن الانسان ، وقد رأينا أن تعدد الأديان يؤكدها ـ يجب أن تكون أساس الفكر والنظام والنشاط فى المجتمع ٠ هنا لاينفى اعلاء الانسان وجود المطلق ٠ بل ان هذا الأخير ينفث فى الانسان روحا يحركه لتأكيد حقوقه على الصعيد الواقعى ، والتغلب على أى عقبة تقف فى هذا السبيل ، وتؤكد الخبرة الدينية ـ المسيحية والاسلامية ـ من خلال المقاومة والكفاح المتواصلين ، هذه النظرة ٠

ورؤية المجتمع المشار اليها للواقع ليست ساكنة ٠ بل هى على الدوام رؤية مستقبلية ٠ تهدف الى التغيير والتقدم ٠

لتعددية تكون بمثابة المحرك الأول ثم تنطلق الحركة فى تلقائية بنفس المنطق ٠ وتتابع المراحل ـ التالية منها تستوعب الأولى وتتجاوزها ٠ النفى لا يعنى اعدام المرحلة السابقة بل تكون هذه حاضرة دائما ولكن فى صورة أعمق وأعلى ٠

هنا تلتحم الرؤيا المثالية التى ترسم للانسان والمجتمع صورة الكمال ، بالتحليل العقلانى الذى يلتزم القوانين العلمية فى تنظيم المجتمع وتطوره ٠ تكون الرؤيا محركا ، والتحليل محولا اياها الى الواقعية ٠ وتسود الفكرة التى تعتبر ان تنظيم الجماعة هو شىء من صنع الانسان ٠ وانه باستخدام المنهج العلمى ، ومع الجهد الانسانى الذى لا حدود له ، يتبدد أى شك فى حتمية التقدم ٠

على أساس هذا التعريف للعلمانية ، يعيش الانسان عند نقطة الالتقاء بين خطوط ثلاثة :

خـط أفقى ، يربطه بالمكان ـ أى بالواقع الذى يحيط به : الطبيعة والمجتمع ·

وخط رأسى ، يربطه بالمطلق وما يملأ عقله وقلبه وروحه من مثل وقيم وآمال ·

وخـط ثالث ، يربطه بالزمان ، أى بالمستقبل · تتحقـق فيه الرؤى بالعقل والجهد البشرى ، من أجل مجتمع أفضل يحترم حقوق الانسان وكرامته ·

وقد يكون من المفيد أن نميز بين علمنة المجتمع secularization واعتناق نظرية علمانية secularism بذاتها تستبعد الدين · وعلى الرغم من أن الأمرين عادة ما يجرى الرباط بينهما ، فان العلمنة ليست بالضرورة نتيجة للعلمانية بالمعنى المذكور · ان العلمنة عمليـة ترتبط أساسا بالتطور الاجتماعى السياسى الاقتصادى باستخدام العمل ومن أجل الانسان وبجهده (١) ·

ونتيجة لالتقاء الابعاد الثلاثة السابقة ، فان ما تفـرزه كل من هذه العلاقات بالمكان وبالمطلق وبالزمان ، مما تقبله النظـرة المشتركة ويدعم حقوق الانسان ـ يكون مقبولا فى العلمنة · والصلة بين هذه الخطوط الثلاثة متبادلة ، العلاقة الرأسية تلهم الأفقية ، وهذه تجعل العلاقة الرأسية أكثر اتصالا بالواقع · ومن هنـا يستمر الانسان صلته بالمطلق ليستمد منها المثل العليا والطاقـة واليقين وشمول النظرة للانسان ، ليتقدم فى بعده الثالث ـ صلته بالزمان وبالمستقبل ـ خطوة الى الأمام ·

Ali Dessouki, Towards a comparative study of secularization in Christian and Islamic experiences, dans, Islam and the Modern Age, vol. II, No. 2, May 1971, p. 49.

والمراجع التى يشير اليها ·

من خلال الحوار العقلانى بهدف تقدم الانسان ـ الذى يجرى بين مكونات المجتمع يصل هذا الى نظرة مشـــتركة يرتضيهـــا الجميع • فأثناء عملية العلمنه و « فى الحـــوار الذى يتم بين شخصين يبحثان عن الحقيقة فى موضوع معين تظهر وجهات نظر متعارضة ـ غير ان كلا من المتحاورين يحاول تدريجيا أن يفهـــم راى زميله • ثم ينتهى الاثنان الى الاتفـــاق على نبـــذ أفكارهمـــا الجزئية ـ وقبول وجهه نظر جديدة أوسع وأرحب • وهكذا ينتهى التعارض الأول الى التوفيق فى مركب أعلى » (١) •

ان المجتمع التعددى مدعو ومطالب بأن يتجاوز تعدده ، وذلك بالوصول الى وحدة جدلية تستوعب التعدد وتجاوزه • هذه المهمة مطروحة ليس فقط فى المجتمعات التى يكون فيها التعدد دينيا ، بل أيديولوجيا أيضا • وسواء كان ذلك فى مرحلة التحليل للوصول الى القرار أو بعد ذلك لتعمق الموقف الذى ارتضاه الشعب وحققه بكفاحه •

وتحتاج التجربة المصرية كما ذكرنا من قبل الى تعميق نظرى ـ فمن خلال الحياة المشتركة استطاع المصريون أن يحققوا انجازات عظيمـــة ورائدة ـ فى الحيـــاة الوطنية والدستورية والاجتماعيـــة والدولية • والمطلوب اليوم مواصلة المســـيرة فى العمل والفـــكر • والسبيل الى ذلك هو الحـــوار انطلاقا من الموقف المشـــترك الذى ارتضاه الشعب كله •

Hegel, by, T.M. Knox dans Enc. Brit., vol. XI, p. 382.

أوردها امام عبد الفتاح امام ـ المنهج الجدلى عند هيجل دار المعارف ، ص ٥١

Adam Schaff, La définition fonctionnelle de l'idéologie et le problème de la « fin du siècle de l'idéologie », Rev. L'Homme et la Société, No. 4, pp. 58 et s.

ذلك انه بعد وصول المجتمع التعددى الى النظرة والموقف الموحدين ، فان الحوار التالى يكون تعبيرا عن هذه النظرة والموقف:

١ ــ نقطة البداية فى الحوار هى الموقف العملى المشترك من مشاكل المجتمع وقضاياه ٠٠ ان الحوار الجدير بهذا الاسم ، القادر على تخطى كل العقبات هو ذلك الذى ينشأ على أرض الواقع لا الذى ينطبق من مناقشات نظرية عقائدية ٠ ففى مواجهة المشاكل الواقعية، يكون الهدف هو الوصول الى أهداف عملية يتفق عليها الأطراف ويشتركون فى تنفيذها ٠وتكون مهمة الحوار هى التحليل المشترك للمشاكل من أجل تفسير الواقع وتأصيل أسباب مشاكله وطريقة حلها ٠

٢ ــ بعد هذا الموقف العملى يأتى تبادل الأفكار ــ كل طرف يقدم الأسانيد النظرية التى دفعته الى اتخاذ هذا الموقف المتفق مع موقف الطرف الآخر ٠ ان الاشتراك فى الموقف يولد ــ بادىء ذى بدء ــ احتراما متبادلا لدين الطرف الآخر أو عقيدته ٠ فطالما أن فكر الآخر أفرز موقفا مثل موقفى فهو يستحق التقدير ولا شك ٠ وفى هذا المناخ الصحى يستطيع أن يشرح كل طرف دينه أو فكره ، وكيف أدت به عقيدته الى اتخاذ هذا الموقف العملى ٠

٣ ــ ثم تأتى خطوة ثالثة ٠ فمن الموقف العملى ومن آراء الطرفين التى يتبادلانها ينبثق فكر موحد مشترك يفسر الموقف العملى المشترك ويبرره ٠ هذا الفكر الموحد يرتضيه الطرفان ويتجاوزان به الخلاف النظرى فى الدين أو الفكر ٠ وبهذا تكون النظرية بمثابة رباط وثيق يربط مكونات المجتمع وهو يمضى فى طريق التطور ٠ تكون سابقة على العمل وتساعده على أن يفض أقصى طاقاته ، وتهدى الممارسة وتقرب الواقع من الهدف ٠ وتتجه النظرية

نحو الخلق لولادة المستقبل لا للعودة الى الماضى ، أو المحافظة على حالة السكون (١) ٠

٤ ـ هذا الفكر المشترك ينتج آثاره العملية ـ اذ يقدم دعما جديدا للموقف المشترك العملى ، فيزداد هذا عمقا وتأصلا فى النفوس ٠ ويمكن للجميع من أن يستخدموا الحجة النظرية لدفع أى محاولة للتفرقة بين صفوف الشعب ٠

٥ ـ وفى هذا المناخ تكون ثمة فرصة لكل طرف أن يقدم تأييدا للنضال المشترك ، دعما جديدا من دينه أو فكره الخاص لتأكيد التحليل المشترك ، والموقف الذى ارتضاه جميع الأطراف أما المنافسة بين الأفكار فتكون فى مجال الاضافة التى تزيد من كرامة الانسان وتدعم بالأكثر كفاحه مع الطبيعة ومن أجل التحرر الوطنى والاجتماعى ٠ والمنافسة هنا تزيد من تقدير كل طرف لفكر الآخر اذ يرى كيف تخدم اضافات هذا الأخير موقف الطرفين العملى والمشترك ٠

٦ ـ ومع توالى عمليات الجدل بين الواقع والفكر ، والحوار بين المطلقات ، يتأثر فكر كل طرف بما لدى الآخر ٠ ويمضى التطور الصحى الذى يتمسك بالقديم وينفتح على الجديد ٠ وهو تطور لا يمضى فى الفراغ ، فى الفكر المغلق على نفسه ، بل المفتوح على الواقع ، وعلى فكر الآخرين ٠

٧ ـ وبهذا كله يزداد الموقف العملى تأصيلا وثباتا وتقدما ٠ وتنعكس آثار ذلك على الفكر ثم على الواقع ثم على فكر الآخر ـ فى عمليات تتوالى بلا نهاية ٠٠

André Dumas, La fonction idéologique in, L'individu et le groupe, éd. Labor et Fides, Genève, 1966, pp. 33 et s.

ان النظرة الشاملة التى تمتد لتشمل القرون كما بمنظار بعيد المدى تستطيع أن تدرك كيف غير هذا النموذج من الحوار وجه الحياة العملية والفكرية على أرض مصر • يكفى لادراك ذلك أن نقارن بين ما كان يحدث أيام البيزنطيين والمماليك والعثمانيين بما بدأ يدور على أرض مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين • كما ان النظرة المستقبلية تستطيع أن تتنبأ بابعاد التطور المقبل على أساس الخبرة السـابقة •

الحوار تعبير عن الوحدة الانسانية فى هذا العالم الذى صار صغيرا متقاربة أجزاؤه ٠

ولقد أوضحنا فيما سبق محاولات الحوار الحديثة ٠ وظهر لنا أن الخبرة المصرية فى هذا المجال تقدم النموذج الأكمل ٠

ومن هنا المسئولية ٠ فمن لديه الكثير مطالب بالمحافظة عليه ، ودفعه الى مزيد من التقدم ، وافادة الآخرين ٠

وفى مواجهة الأفكار والنظم العنصرية ، ومع انتشار أساليب القهر واهدار كرامة الانسان ـ يصبح النموذج المصرى هو التحدى والأمل ٠ ان مقارنة بين ما جرى وما يمضى على الأرض المصرية ، وبين ما يحدث على أرض فلسطين يوضح مدى التحدى الحضـــارى الذى تقدمه مصر للفكرة الصهيونية وللنظام المؤسس عليها :

فالانتماء للأرض

واللغـة

والحياة المشتركة

والنضال الموحد بين مكونات الشعب -

في هذه المجالات جميعا يقدم كل نموذج نقيضا للآخر - أحدهما يقوم على الادعاء بأن أساس الانتماء للأرض ديني ، ويبعث لغة لا يتكلم بها ولا يفهمها الا بضعة مئات من الألوف ، ويرفض الحياة المشتركة مع سكان الأرض الأصليين ، ويعتمد اعتمادا كاملا على القوى الأجنبية الخارجية ·

أما النموذج الآخر فيقدم النقيض تماما ·

ومن هنا ضرورة انتصار النقيض الحضارى ، لأن فى هـذا الانتصار اثباتا لصحة كل القيم الانسانية التى يقوم عليها ، ودحضا لكل ما يدعم به النموذج الآخر نفسه من مفاهيم وقوى ·

ويبدأ الانتصار ويتدعم بانتصار الانسان المصرى على أرضـه وشعوره بالكرامة فيها وممارسته اياها فعلا ·

واذا كنا قد تابعنا فى الصفحات السابقة محاولات الحوار التى يدخل الغرب المسيحى طرفا فيها ، فان هذا يلقى مسئولية خاصة على كنيسة مصر · ان مصر تنتظر من كنيستها الكثير ، ولقد رأينا رئيس الجمهورية يقـول انه قد آن الأوان لـكى تأخـذ كنيسـة الاسـكندرية مكانها كمـا كانت عبر التاريخ منارة فى عالـم المسيحية ·

وفى حقيقة الأمر فان المسيحية تجتاز فى الغرب أزمة حقيقية، وتتضح أبعاد هذه الأزمة من متابعة معظم الدراسات والقرارات التى

صدرت فى الغرب - فى كليات اللاهوت والمؤسسات الدينية والمؤتمرات المحلية والمسكونية ، لتفسير الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، فى هذا كله نجد ردة يهودية تهدد العقيدة المسيحية نفسها تهديدا جسيما ، وتظهر الركيزة الفكرية الخطيرة التى تشكل الخلفية التى تقف وراء المواقف السياسية ·

فى مواجهة هذا كله تملك الكنيسة القبطية منهجا روحيا بالغ الاصالة والعمق · يمثل اليوم بحق سفينة النجاة بل منارة هادية ·

ومن هنا ضرورة أن يكون لهذه الكنيسة العظيمة ذات التاريخ المجيد دور رائد ومستقل وسط كنائس العالم · ولهذا أصبح نشر دراسة علمية لأزمة الفكر المسيحى فى الغرب من هذه الناحية ، وكذا دراسة متعمقة لمنهج كنيسة مصر ولتراثها فى هذا المجال ، نشر هذه الدراسات يصبح أداة عمل ليس من الصالح تأخيرها لتكون بين أيدى أطراف الحوار ·

وبالاضافة الى هذا فان دور الكنيسة القبطية لابد أن يصبح ايجابيا تملك به زمام المبادرة ولا تكتفى بأن تدعى الى اجتماعات الحوار - بل تكون هى صاحبة الدعوة الى لقاء الحوار وتضع الأوراق التمهيدية للقاء ، ثم تتابع نتائجه ··· بهذا يتحقق دورها الرائد والمستقل ·

واذا كانت الأرض المصرية قد أفرزت الحياة المشتركة ، فقد جاء الوقت لتأصيل أركان هذه الحياة نظريا ، بما يخدم هذه الحياة ويعمق أصولها على النحو الذى أوضحناه فيما سبق · فهو تأصيل يقوم أول كل شىء على الاحترام المتبادل ، ويطبق قواعد الحوار التى تم استخلاصها فى هذه الدراسة من خلال تعمق الحياة المصرية ،

ولهذا فقد حان الوقت لبدء الحوار المصرى الذى صحت النية على اجرائه كما وضح مما تقدم ·

ان الحوار المصرى هنا هـو المقدمة الحتمية لدخـول مصر ـ المؤمنة ـ فى الحوار مع الغير · واذا كنا قد أوضحنا أن الحوار المجدى هو الذى يدور حول الانسان ومن أجل اعلاء كرامته ، فان صوت مصر فى مثل هذا الحوار يكون أقوى وأكبر تأثيرا لو كان صوتا موحدا · فيقدم القول المصرى تعبيرا عن الحياة المشتركة التى أفرزتها المسيحية والاسلام المتعايشين المتعاونين على الأرض المصرية ، لصالح الانسان المصرى واعطائه حقوقه وحفظ كرامته فى جميع المجـــالات ·

ولقد رأينا أن دخول ابناء المجتمعات التعددية فى آســيا الى مجالات الحوار ، كان نقطة تحـول فى نظرة الغرب الى المـذاهب المسيحية غير الغربية والى الأديان الأخرى · ولقد جاء الوقت ليكمل المصريون الطريق · وليس من شك فى أن تأثيرهم سيكون دفعة حقيقية لمسار الحـوار بحـكم خبرتهم المتفوقة فى الحياة المشتركة العميقة الجذور · وبهذا يمكن أن ينكشف ما وراء الحوار الموجه من أهداف وما يجرى فيه من ابتزاز ، كما يصبح للحوار المجرد مضمون واقعى يخدم الانسان ·

بل ان قواعد الحـــوار تتجاوز الحوار بين الأديان ، لتكون أساسا للحوار بين النظريات والايديولوجيات المختلفة · ذلك أن المجتمع المنفتح لابد أن يقوم انفتاحه على أسس واضحة · وطالما أن صاحب الفكرة يقوم سندا لفكرته موقفه على الصعيد العملى الفعلى ، من خلال الممارسة والمساهمة فى الحياة المشتركة وتحقيق أهداف الوطن والشعب ـ فقد أصبح له الحق فى أن يحترم (بضم الياء) رأيه ، وعليه أن يحترم الآخرين أصحاب الممارسة المماثلة ·

ويظل البعد المستقبلى فى الحوار محركا له وباعثا لحيويته · فأطراف الحوار ينظرون الى المستقبل يحددون ملامحه ، ويصممون على جعله خيرا من الواقع الحاضر ·

أما النقطة المركزية فى هـذا المستقبل فهى الانسان : هـو البداية وهو الوسيلة وهو النهاية ـ الانسان الصـاعد الى آفاق مستقبله بجناحين من العلم والايمان ·

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٦/٤٠٨٣

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٣١ ٠